مجلة كلية الآداب جامعة بورسعيد
https://jfpsu.journals.ekb.eg/

P-ISSN: 2356-6493 E-ISSN:2682-3551

شعر أبي القاسم الشابي بين الثورة واليأس
دراسة وصفية تحليلية

أ.م.د/ هند ماهر أبو العطا إبراهيم
أستاذ مساعد بقسم اللغة العربية وآدابها
كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة الملك خالد
habrahim@kku.edu.sa

10.21608/jfpsu.2025.347429.1409

تاريخ الإرسال : ٢٠٢٤/١٢/١٣م **تاريخ القبول :** ٢٠٢٥/١/١٤م
تاريخ النشر : ٢٠٢٥/١/٢١م

This is an open access article licensed under the terms of the Creative Commons Attribution International License (CC BY 4.0). http://creativecommons.org/licenses/by/4.0/

شعر أبي القاسم الشابي بين الثورة واليأس
دراسة وصفية تحليلية

مستخلص

يعتبر شعر أبي القاسم الشابي تجربة إنسانية عميقة ورؤية رومانسية وفلسفية متميزة؛ حيث يعد نموذجًا بارزًا في الشعر العربي الحديث جسّد فيها الصراع بين الأمل والألم، وبين الحرية والقيود.. ورغم موته المبكر عام ١٩٣٤، فإن إرثه الشعري ظل خالدًا، يعبر عن روح العصر وتطلعات الإنسان العربي نحو حياة كريمة.

وينقسم البحث إلى محورين أساسيين:

الأول: الجانب الثوري لدى أبي القاسم الشابي مشيرًا إلى أسبابه من كونه شابًّا، وقراءاته للآداب العربية والأجنبية المتحررة من القيود القديمة، وشعوره بأهمية الحرية لكل المخلوقات خصوصًا في ظل سيطرة الاحتلال الفرنسي للبلاد، وتأثره بعمل والده في القضاء وكثرة انتقالاته في البلاد ومشاهداته للمناظر البديعة، والتخلف الواضح في جميع جوانب الحياة المعاصرة.. كما أشار البحث إلى بعض مظاهر الثورة.

الثاني: أسباب خمود الشاعر ويأسه من حياته الخاصة والأحوال المحيطة به، ومنها وفاة محبوبته ثم وفاة والده، ثم إصابته بالمرض، وشعوره باستكانة أبناء وطنه وعدم اهتمامهم بالنهوض والتقدم.. وأشار البحث – كذلك – إلى مظاهر ذلك اليأس والاستسلام، ومنها هروب الشاعر إلى الطبيعة ورغبته في الموت وغير ذلك.

وقد أوضحت الباحثة أن الطبيعة كانت ملاذًا روحيًا للشابي، حيث استوحى منها رموزه وصوره الشعرية، واستخدمها كوسيلة للتعبير عن تأملاته الفلسفية. ثم ذكر البحث – باختصار – بعض خصائص المعجم الشعري عن الشابي. هذا.. وقد اتَّبعت الباحثة المنهج الوصفي التحليلي، في محاولة للوصول إلى قراءة شاملة لموضوع الدراسة.

الكلمات المفتاحية: الشابي، الثورة، تونس، الأدب، الطبيعة، عمود الشعر.

Abu al-Qasim al-Shabi's Poetry between Revolution and Despair A Descriptive Analytical Study

Abstract

Abu al-Qasim al-Shabi's poetry is considered a profound human experience and a distinct romantic and philosophical vision; as it is a prominent model in modern Arabic poetry in which he embodied the conflict between hope and pain, and between freedom and restrictions. Despite his early death in 1934, his poetic legacy remained immortal, expressing the spirit of the age and the aspirations of the Arab person towards a decent life.

The research is divided into two main axes:

First: The revolutionary aspect of Abu al-Qasim al-Shabi, indicating its reasons from being young, and his readings of Arabic and foreign literature liberated from old restrictions, and his feeling of the importance of freedom for all creatures, especially in light of the control of the French occupation of the country, and his influence by his father's work in the judiciary and his frequent travels in the country and his observations of beautiful scenes, and the clear backwardness in all aspects of contemporary life.. The research also pointed to some aspects of the revolution.

Second: The reasons for the poet's stagnation and despair from his private life and the conditions surrounding him, including the death of his beloved, then the death of his father, then his illness, and his feeling of the resignation of his countrymen and their lack of interest in progress and advancement.. The research also pointed out the manifestations of that despair and surrender, including the poet's escape to nature and his desire for death and other things.

The researcher explained that nature was a spiritual refuge for Al-Shabbi, as he drew inspiration from it for his symbols and poetic images, and used it as a means of expressing his philosophical contemplations. Then the research mentioned - in brief - some characteristics of Al-Shabbi's poetic lexicon. This.. The researcher followed the descriptive analytical method in an attempt to reach a comprehensive reading of the subject of the study.

Keywords: al-Shabi, revolution, Tunisia, literature, nature, poetry column.

مقدمة

استطاع أبو القاسم الشابي أن يشغل الباحثين والنقاد أثناء حياته – القصيرة – وبعدها، وهو من الشعراء المغاربة القلائل الذين بلغت شهرتهم المشرق والمغرب، فإذا ما قِيست شهرته بفترة حياته القصيرة جاز اعتباره من أكثر الشعراء تأثيرًا.

ولد أبو القاسم الشابي عام ١٩٠٩ ، في بلدة "الشابية" إحدى ضواحي مدينة " توزر" كبرى بلاد " الجريد " بالجنوب التونسي وتضم هذه المنطقة بحيرة واسعة جدًّا تدعى" شط الجريد " تقع توزرعلى الجانب الشمالي الغربي منها، وهي بلدة قديمة كثيرة النخل [1]. في عام ١٩٢٧ ، تخرج الشابي من جامع الزيتونة، وحصل على شهادة "التطويع" والتحق في السنة نفسها بمدرسة الحقوق التونسية، ليظفر بشهادتها عام ١٩٣٠[٢] ، إلا أن ذلك لم يدم طويلًا، فقد عكرت صفوَ حياته الأحداثُ والنكباتُ، وكان في مقدمها موت والده ومرضه – تضخم القلب – الذي عانى فيه أشد أنواع المرارة وأقسى ضروب العذاب [3] وفي تسعة أكتوبر سنة ١٩٣٤ توفي الشابي، ولم يكن عند موته قد بلغ السادسة والعشرين عامًا)[٤]

وأما والد الشاعر وهو الشيخ محمد بلقاسم الشابى فكان من علماء الدين ومن أسرة وهبت حياتها للعلم والاحتفاء به ، وقد ولد بقرية الشابية فى عام ١٨٧٩ م، وتلقى تعليمه الأول فى مسقط رأسه، ثم ذهب إلى مصر فى عام ١٩٠١م ليلتحق بالأزهر الشريف، فدرس فيه سبع سنين ، تتلمذ فيها على يد أعلام العلم وقادة الإصلاح كالشيخ محمد عبده ثم عاد إلى تونس ، وقد تشبعت روحه وتغذى عقله بمبادئ الإصلاح الدينى التى أرسى قواعدها جمال الدين الأفغانى ودرس بعد عودته سنتين بجامع الزيتونة نال بعدهما شهادة التطويع (العالمية بالأزهر) وهى إجازة نهاية الدراسة بالكلية الزيتونية فى ذلك العصر.

1 . ريتا عوض، أعلام الشعر العربي الحديث، أبو القاسم الشابي، ص١٥
٢ . مصطفى الحبيب بحري، ، الشابي النبي المجهول، ص ٥٥
3 . أبو القاسم محمد كرو، ، الشابي، حياته وشِعره ، ص ٤٠
٤ . رجاء النقاش، أبو القاسم الشابي، شاعر الحب والثورة ، ص٧٢

من الدراسات السابقة :

دراسة: مدحت سعد محمد الجبار" الصورة الشعرية"، وزهير أحمد منصور، بحث منشور على شبكة الإنترنت للشابي" دراسة أسلوبية".

دراسة: محمود محمد سليمان في بحثه "الجمل المتوازية " في ديوان أبي القاسم الشابي، وهي دراسة نحوية – دلالية، ويقع هذا البحث في تسع وثلاثين صفحة.

دراسة: إياد توفيق مصطفى أبو الرب، رسالة ماجستير بعنوان _ أثر النزعة التشاؤمية في المعجم الشعري لأبي القاسم الشابي، ٢٠٠٩

دراسة: عزيز لعكايشيى، مظاهر الإبداع الفني في شعر أبي القاسم الشابي (رسالة ماجستير ٢٠١٩

دراسة: لطيفة محمد أحمد الشعيبي، الجملة الخبرية في ديوان أبي القاسم الشابي، رسالة ماجستير ٢٠٢٠

وهناك بحوث أخرى منشورة على شبكة الإنترنت، كظاهرة التكرار والأسلوبية، وغيرها.

الشابي شاعر الثورة

من يقرأ لأبي القاسم الشابي قوله:

إذا الشعب يومًا أراد الحياة فلا بُدَّ أن يستجيبَ القدرْ

ولا بدَّ للَّيلِ أن ينجـلي ولا بدَّ للقيدِ أن ينكسـرْ

يتيقَّن أنه أمام ثائر – بل قائد ثورة؛ ذلك بأنه لم يكن احتجاجه لأمر شخصي، وإنما يثور في وجه محتل غاصب من أجل شعب – ربما نسي حقوقه أو غفل عنها – مبيّنًا له كيفية السير في الطريق الوعرة، ومؤكِّدًا بأن القدر يستجيب.. فقد عُرِف عن الشابي أنه شاعر ثوري، نظرًا لكثرة أشعاره المليئة بالتمرد على كل ما حوله: الزمان والمكان والأشخاص والعادات والحكومة – آنئذٍ – والاحتلال .. وغير ذلك، ولكن كثيرًا من الناس لا يعرفون الجانب المسالم من حياته، وأنه كثيرًا ما آثر الانسحاب من الحياة والواقع – الذي وجده خاذلًا لمبادئه – خصوصًا بعد موت والده ثم مرضه – أي الشابي؛ فالشابي شاعر الثورة، وهو أيضًا شاعر الإحجام والخمود.

دوافع الثورة عند أبي القاسم الشابي:

من الطبيعي أن يكون الشباب أكثر حماسًا واندفاعًا وثورةً، وبخاصة إن وُجِد من المؤثرات ما يؤججها، وقد تكاتف الكثير من المؤثرات ليكون أبو القاسم الشابي – بحق – شاعر الثورة كما أطلق عليه البعض، وكما اتفق الباحثون والنقاد على ذلك، ومن هذه المؤثرات:

١. فترة الشباب التي عاشها الشابّي.

عاش الشابي شابًّا ومات شابًّا، بسبب ما عاناه من مرض في تلك الفترة، فقد واجه بقلب الشاب ما يكتنف هذه الفترة من اندفاع وثورة – ابتداءً – قبل تدبُّر الأمر، فيرى الشابي أن الحياة صراع مستمر، فلتكن – أيها الإنسان – يقظًا قبل أن تدوسك الحياة بأقدامها، فيقول:

إن الحياةَ صِـراعٌ فيها الضعيفُ يُداسُ
ما فاز في ماضِـغيها إلا شـديدُ المِراسِ
للحب فيها شـجونٌ فكن فتى الاحتراسِ
الكون كونُ شـقاءٍ الكونُ كونُ التِبـاسِ [١]

فهو يؤكد أن الحياة صراع دائم؛ فلعله أحسَّ بالمبالغة في الوصف فاستخدم بعض المؤكدات مثل (إن، وتقديم الخبر على المبتدأ في قوله: للحب شجون، والنفي والاستثناء في قوله: ما فاز إلا شديد المراس) وذلك لإزالة اللبس.. واستخدامه التشبيه البليغ في قوله: (الحياة صراع، الكون كون شقاء، الكون كون التباس) يقرب المعنى إلى الأذهان، ويوحي بكينونة الحياة التي تعتمد على الصراع الدائم والشقاء والالتباس، والتي يُداس فيها الضعيف – غالبًا، فليحذر العقلاء أن يقعوا تحت أقدامها.

وبقلب الشاب فإن الشاعر يستشعر أنه يختلف عن غيره في مواجهة الحياة؛ فرياحه – دون غيرها– عاتية لا تهدأ، أما الرياح التي يعرفها الناس فإنها تثور وتخمد.. فيقول:

ما للرياح تهبّ في الدّ نيا ويدركها اللغـو ب
إلا رياحـي، فهـي جا محـة، تمرّدهـا عصيب [٢]

[١] . مجيد طراد، ديوان أبي القاسم الشابي ورسائله، دار العالم العربي، ص ١١٣

فهو يستخدم الاستعارة التصريحية – بغرض التجسيد – لبيان مدى قوته في مواجهة الحياة، متباهيًا بها وباستمرارها؛ (فهي جامحة) و (تمرُّدُها عصيب)

ويعلن استعداده – وهو الفتى المغوار – لصدِّ الأسى عن المبتلَيْن بهمة لا تُضاهَى، ويريد أن يصحح أخطاء البعض في خوض الحروب وملء الأرض بالدماء، فيقول:

يودُّ الفتى لو خاض عاصفةَ الردى وصدَّ الخميسَ المجْرَ والأسدَ الوردا
ليدركَ أمجادَ الحروبِ، ولو درَى حقيقتَها ما رامَ مِن بينِها مَجدَا
فما المجدُ في أن تُسكِرَ الأرضَ بالدِّما وتركبَ في هيجائِهَا فرسًا نَهدَا
ولكنه في أن تصدَّ بِهِمَّــةٍ عنِ العالمِ المرزوءِ فيضَ الأسى صدَّا [1]

والنفي والاستثناء في البيتين الأخيرين يؤكدان أن الشاعر يدير الصراع بشيء من العقلانية، فليس المجد في كثرة الدماء ولكنه في دفع الضر، ولكن صدَّ الأسى صراع على كل حال، وبطولة يجب القيام بها، فليكن الفتى المغوار في الصف الأول.

٢. **إدراكه بأن الحرية أصل أصيل.**

كل ما في الوجود يتمتع بحريته التي خلقه الله تعالى عليها، ولا ينبغي للشاعر – وهو الإنسان – أن يكون بعيدًا عن هذا الأصل؛ فالإنسان – من باب أولى – أحق بتلك الحرية؛ حيث إن كل المخلوقات تحيا في قلبه، فيستشعرها ويعيش بها.. فيقول:

كلُّ ما هَبَّ ودبَّ وما قام أو حام على هذا الوجودْ
من طيورٍ وزهورٍ وشذا وينابيعَ وأغصانٍ تميدْ
وبحارٍ وكهوفٍ وذُرى وديارٍ وبراكينَ وبِيدْ
وضياءٍ وظلالٍ ودُجَى وفصولٍ وغيومٍ ورعودْ
كلها تحيا بقلبي حرةً غضَّةَ السحرِ كأطفالِ الخلودْ [2]

فالشاعر يقرُّ بحرية كل الكائنات – وكأنه خَبَرَها جميعًا – وهذه أمور لا تحتاج إلى دليل، ثم يعود للتفصيل بع الإجمال؛ مما يجعله يستوحي حريته تبعًا مما يرى منها، ولا يستسلم أو يخضع لمن يعمل على إنقاصها، ثم يعود – بعد ذلك – لتأكيد العموم مستخدما

---

٢ . أبو القاسم الشابي، الديوان، شرح: أحمد حسن بسج ٢٠٠٥ ص ٢٢
[1] . يوسف عطا الطريفي، أبو القاسم الشابي، حياته وشعره، ص ١٩٨
[2] . مجيد طراد، ديوان أبي القاسم الشابي ورسائله، دار العالم العربي، ص ٧٧

كلمة "كلها" مرة أخرى، جاعلًا قلبه ظرفًا لكل تلكم الأشياء، ومضيفًا إليها عنصرًا جديدًا يترجم النظرة المثالية ولا تخفى حريته؛ أعني "أطفال الخلود"[١] .

ولكي يجعل القارئَ يستشعر ما أراد بكلمة "كل" فقد جاء في البيت الأول بعدة أحوال لتلكم المخلوقات؛ فقال: (هبَّ، دبَّ، قام، حام)، ولا يكاد يخرج عنها حال من أحوال المخلوقات، مما يوحي بالعموم، ثم يكررها قبل نهاية الأبيات، وهو ما يسمَّى تصدير الحشو[٢].

ثم يصل إلى أم تلكم المخلوقات – أي الطبيعة – فيتغزل بها وبما تنعم به من حرية يبدو سبب بعضها ويخفى الآخر، فيقول:

أنتِ ! ما أنتِ؟ أنتِ رسمٌ جميلٌ عبقريٌّ مِن رسمِ هذا الوجودْ
فيكِ ما فيه مِن غموضٍ وسحرٍ وجمـالٍ مقـدَّسٍ معبـودْ
أنتِ روحُ الربيعِ تختال في الدنـ ـيا فتهتـزُّ رائعـاتُ الورودْ
وتهبُّ الحياةُ سكرى مِنَ العطْـ ـرِ ويدوي الوجودُ بالتغريدْ [3]

إنه يندهش من روعة الطبيعة، ولتأكيد انبهاره بها فقد خاطبها في البيت الأول – فقط – ثلاث مرات، ويسألها سؤال العارف بها، فيُلبسها ثوب الحياء فلا ينتظرها حتى تجيب، ولكنه يجيب بنفسه فيذكر عنها ما لا يكاد يعرفه – من الناس – سواه، بادئًا بكلمة "عبقري" التي لا ينتظر القارئ بعدها أي مفاجأة في الأوصاف التي وردت بعدها من امتلائها بالسحر والجمال المقدس والربيع الذي يختال تيهًا على سائر الزمن فتطرب له الورود يغني الوجود وتسكر الحياة.. وعلى قِصَر الأبيات فإن الشاعر ملأها بالحياة مستعينًا بالاستعارات المكنية في اختيال روح الربيع، وسُكر الحياة، وتغريد الوجود، (وذلك بغرض التشخيص)، واهتزاز الورود (بغرض التجسيم).

[١] . لعله يقصد الولدان المخلدين في الجنة وما أشار القرآن الكريم من دوام طوافهم بأهل الجنة.
[٢] . ابن أبي الإصبع المصري، تحرير التحبير في صناعة الشعر والنثر وبيان إعجاز القرآن، تحقيق: حفني محمد شرف، ط المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، القاهرة ٢٠١٢ ص ١١٧ ، وتصدير الحشو هو تكرار كلمة أول البيت الأول وقبل نهاية الأبيات.
[3] . مجيد طراد، ديوان أبي القاسم الشابي ورسائله، دار العالم العربي، ص٨٠

٣. احتلال فرنسا لبلاده.

احتلت فرنسا وطن الشاعر . شأن جميع البلاد العربية التي تعرضت للاحتلال في ذلك الوقف – وما كان منه – أعني الاحتلال – من قسوة على أهل تلكم البلاد وسوء معاملة انعكس بعد ذلك على سلوك المواطنين من تمرد على الأحوال وثورة على الأوضاع يقودها العلماء والأدباء ومن ورائهم الشباب، والتي انتهت بتحرير كل البلاد فيما بعد، فقد "خضعت البلاد منذ ذلك الحين لسياسة خبيثة، تستهدف إبقاء الشعب التونسي في حالة من التخلف الفكري عن طريق تشجيع الهياكل الثقافية التقليدية، والحيلولة دون قيام حركة تنويرية أو محاولة إصلاح مستنيرة، والهدف الاستعماري لهذه السياسة معروف، ومن ثم كان لحركة التجديد الفكري والأدبي في تونس وجهها السياسي بالضرورة، فقد كانت الدعوة إلى تحرير الأدب من قيوده التقليدية البالية هي في الوقت نفسه دعوة إلى تحرير الإنسان من الظلم السياسي والاجتماعي الواقع به، ومن ثم كان لأدب الشابي – الشعري والنثري – وجهه الفكري والفني، فالقيود التي يحس بها الإنسان الفرد الشاعر مكبلة لروحه، هي نفسها القيود التي تشكل روح الجماعة". [١]

وقد عاش الشابي في غمار تلك الفترة وتأثر بأحداثها، ولكونه مواطنًا شاعرًا فقد ازداد تأثره بما حوله، ومن ثَمَّ تأثيره فيمن حوله رغم أن العدو حاول – مرارًا – اضطهاده وإخماد صوته بكل تعسف وصلف.. فيقول:

كلما قام في البلاد خطيبٌ مُوقِظٌ شعبَه، يريد صلاحَهْ
ألبَسوا روحَه قميصَ اضطهادٍ فاتكٍ شائكٍ يردُّ جِماحَهْ
أخمدوا صوته الإلهيَّ بالعسْـ ـفِ، أماتوا صُداحَه ونواحَهْ
وتوخَّوْا طرائقَ العسفِ والإر هاقِ معه، وما توخُّوا السماحَهْ
هكذا المصلحون في كل صوبٍ رشقاتُ الرَّدى إليهم مُتاحهْ
أنا يا تونس الجميلة في لجِّ الهوى قد سبحت أيَّ سِباحهْ
شِرعتي حبُّكِ العميقُ، وأنِّي قد تذوَّقتُ مُرَّه وقُراحَهْ
لا أبالي – وإن أُريقَت دمائي – فدماءُ العشاق – دومًا – مُباحَهْ

١ . الشابي، أبو القاسم ، شرح وتعليق، عزالدين إسماعيل، ١٩٩٧ ، ص ١٤، ١٥

ويطولُ المدى تُريكِ الليالي صادقَ الحب والولا وسَجَاحَه
إن ذا عصرُ ظُلمةٍ غيرَ أني مِن وراء الظلام شِمتُ صَباحَهْ
ضيَّع الدهرُ مجدَ شعبي، ولكنْ ستردُّ الحياةُ يومًا وِشاحَهْ [١]

إن الشاعر – كغيره من الخطباء والمصلحين – له روح ثائرة تحاول إيقاظ أبناء شعوبهم من سباتهم، ما يجعلهم يتعرَّضون – بدعوتهم – لاضطهاد مَن هم أقوى منه – يعني المحتلين ومن عاونهم، ولا غرابة في ذلك؛ إذ إن ذلك ديدنهم، وهو – في المقابل – لا يبالي بما يفعلون به، دافعه في ذلك حب تونس واعتياده – من جرَّاء ذلك الحب – على التقلبات من قسوة أو لين، آملًا أن تميز المحبوبة – تونس – صادق الهوى من كاذبه والذي اتخذ الشاعر سجاحَ [٢] رمزًا للكذب، ومن العجيب أن الاحتلال الفرنسي وجد من أولياء أمور البلاد من يعينهم على اضطهاد الشعوب ونهب ثرواتهم وقطع الطريق بين أهلها وبين المستقبل المأمول؛ "فمن ثلاثين ألف موظف إداري في تونس بعد الحرب العالمية الأولى كان هناك خمسة وعشرون ألفا على التقريب من الفرنسيين في مقابل خمسة آلاف من أبناء تونس". [٣]

إذن لا جديد في حبه لبلاده، ولا اختلاف في حاله عن سائر العشاق – مُستباحي الدماء، غير أن لدى الشاعر – مع الاضطهاد – أملًا في بزوغ الصباح واسترداد مجد شعبه.

والشاعر في أبياته يستخدم الاستعارات في كل من: (موقظٌ شعبه، ألبسوا روحه، أخمدوا صوته، شِرعتي حبُّكِ، ضيع الدهر مجد شعبي) وغير ذلك.. فجعل الشعب إنسانًا نائمًا – وذلك أبلغ حالات الغفلة، وجعل روحه تلبس ثوب الاضطهاد قهرًا، وصور صوته بنار مشتعلة سعى العدو لإخمادها، وحب البلاد دين لا ينفك عن المتدين مهما سعى الساعون للإبعاد بينهما، كما جعل الدهر إنسانًا غير أمين يضيع أمجاد الشعوب.. واستخدم الكناية في قوله: (وتوخَّوْا طرائقَ العسفِ) كناية عن شدة العقاب، (شِرعتي حبُّكِ

١ . مجيد طراد، ديوان أبي القاسم الشابي ورسائله، دار العالم العربي، ص ١٨٩ ، ١٩٠
٢ . كانت سجاح ممن ادعى النبوة في الجزيرة العربية، وقد تزوجت من مسيلمة الكذاب، فكانا بلا شك رمزًا للكذب، ولكن القافية ألجأت الشاعر إلى ذكر سجاح دون مسيلمة..
٣ . رجاء النقاش، أبو القاسم الشابي، شاعر الحب والثورة ١٩٧٥ ، ص ١٠

العميقُ) كناية عن تأصل ذلك الحب في نفسه، (لا أبالي) كناية عن جُرأته في مواجهة العقاب، (فدماءُ العشاق مُباحَة) كناية عن تشابه مصائر المحبين لدى محبوبيهم وأنهم لا يجدون من يرثي لهم.... وغيرها.

كما أن استخدام التشخيص في بعض هذه الصور يُريكَها رأيَ العين فلا تكاد تُخطئها؛ ما يجعل القارئ أو السامع يعيش تجربة الكفاح مع الشاعر – ولو بقلبه – لعل البعض ينتصر للقضية فيُكثر الأنصار في مواجهة الأعداء.

٤. كثرة تنقلاته بين ربوع تونس.

لم ينعم الشابي في حياته القصيرة بالاستقرار، ولكنه كان كثير الترحال داخل القطر التونسي، ما يمكن اعتباره من شعراء المهجر الداخلي؛ فما كاد يستقر بمكان حتى تُلجئه ظروف عمل والده إلى التنقل إلى غيره، حيث "كان والده من خريجي الأزهر ومن مُجازيه، وبه درس أولًا، فأقام بمصر في أوائل هذا القرن[١] سبع سنين، ثم درس بتونس بجامع الزيتونة سنتين حصل بعدهما على التطويع [٢] ... ولم ينشأ أبو القاسم بمسقط رأسه؛ فقد خرج عنه في سنتِه الأولى ولم يكد يعرفه إلا قليلًا.... وقد استغرقت جولة الأسرة عشرين سنة ضربت في بحرها بالبلاد التونسية طولًا وعرضًا حيث توفي والده سنة 1929 " [٣]، شاهد فيها الكثير من البيئات المتنوعة بسكانها وسهولها ووديانها وجبالها " ، فقد أتاح هذا الفرصةَ للطفل لأن يملأ عينه من ذلك التنوع الماثل في طبيعة تلك الأماكن، وطبائع أهلها، وأشكال حياتهم المختلفة" [٤]

وقد كان لذلك التجوال أثره في تنمية عقل الشاعر وفكره ووجدانه، فتعلم في المدارس المختلفة وشاهد أسلوب الاحتلال في التعامل مع أهل البلاد حسب كل زمان ومكان، مما عمل على تعميق الوازع الثوري بداخله "وإذا كان هذا الترحال قد حرمه من الاستقرار في المدرسة الواحدة، فقد أكسبه خيالا متوثبا، وغذَّى ذاكرته بصور من البيئة التونسية المتنافرة، وعمق تجربته الشعرية، فأطلقه من حدود البيئة الضيقة، وأكسبه تجربة إنسانية

١ . أي القرن العشرين.
٢ . هي إجازة نهاية الدراسة بالكلية الزيتونية في ذلك الوقت.
٣ . أبو القاسم الشابي، أغاني الحياة، الدار التونسية للنشر ١٩٧٠، ترجمة الشاعر، بقلم: محمد الأمين الشابي ص ١١، ١٢
٤ . عز الدين إسماعيل، شرح ديوان الشابي، دار العودة، بيروت ١٩٩٧ ، ص 8

شاملة"[١] نتج عن هذه التجارب ثراء أدبي؛ حيث تواصل شاعرنا مع الكثير من شعراء عصره الذين ثاروا على التقاليد الموروثة وتشابهوا مع الشابي في ميوله الأدبية فأثرى تجربته من خلال قراءة آدابهم، وقراءة الآداب الغربية المترجمة؛ حيث لم يكن الشابي يعلم لغة أخرى بخلاف العربية، "ساعده ذلك كله على تحديد موقف الشاعر من القضايا والأوضاع السياسية والاجتماعية والفكرية التي كان ذلك الواقع يطرحها، وبتحديد هذا الموقف تحددت في ضوئه المضامين الفكرية والشعورية التي أكدها شاعرنا بأعماله الشعرية وكتاباته الفكرية على السواء". [٢]

وأدرك أن إيقاظ الشعب هو السبيل الأول للتقدم والنهوض على مختلف الأصعدة، فيقول:

إذا التفَّ حول الحقِّ قومٌ فإنـهيُصَرِّمُ أحداثَ الزمـانِ ويُبـرِمُ
لكَ الويلُ يا صرحَ المظالمِ من غدٍ إذا نهض المستضعفون وصمَّموا
ألا إن أحـلامَ البـلادِ دفينـةٌ تجمجمُ في أعماقِها ما تُجمجِمُ [٣]

فيكفي أن ينهض المظلوم ليقوّض عرش الظالم، وهذا مقصد قوله: "لك الويل".

٥. تأثره بعمل والده في القضاء.

"سُمّيَ (أي والده) قاضيًا شرعيًّا لسنة من ولادة بِكْرِه أبي القاسم، فتصرَّف في قضاء كثير من البلدان التونسية.... ولقد نشأ أبو القاسم في تكوينه الفكري والخلُقي في كنف رعايته الصالحة يقتبس من علمه وآدابه.. كان رحمه الله صادق التقى قوي العقيدة، لا يخشى في الحق لومة لائم، له غيرة على شؤون المسلمين والإسلام تنفعل نفسه بما يجري آنذاك من أحداث بالشرق العربي وطرابلس الغرب أو بلاد الريف"[٤] فكان لتلك النشأة أكبر الأثر في تكوين شخصية الشاعر والتي نَمَتْ بنُمُوّه، وانعكست في كتاباته بعد ذلك، فقال أبو القاسم مؤكدًا ذلك: "إنه أفهمَني معاني الرحمة والحنان، وعلمني أن الحق خير ما في هذا العالم، وأقدس ما في هذا الوجود" [٥].

١ . مجيد طراد، ديوان أبي القاسم الشابي ورسائله، دار الكتاب العربي، بيروت ١٩٩٤ ص ٥
٢ . عز الدين إسماعيل، شرح ديوان الشابي، دار العودة، بيروت ١٩٩٧ ، ١٠
٣ . الشابي، الديوان، شرح وتعليق، أحمد حسن بسج ٢٠٠٥ ، ص ١٣٦
٤ . أبو القاسم الشابي، أغاني الحياة، الدار التونسية للنشر ١٩٧٠، ترجمة الشاعر، بقلم: محمد الأمين الشابي ص ١٢
٥ . يوسف عطا الطريفي ، أبو القاسم الشابي، الخيال الشعري عند العرب، صفحة الإهداء.

٦. اتصاله بشعراء المعاصرين – وخصوصًا جماعة أبوللو – وتأثره بهم.

شهد الوطن العربي – في مطلع القرن العشرين – نهضة أدبية كبرى على أيدي شعراء حملوا أمانة البلاد في وجه الاحتلال وأذنابه وما نتج عن تحالف الفريقين من تخلف ورجعية واضطهاد لكل صوت حر يُنتَظر منه أن يقود الأمة إلى التحرر الفكري والنهوض الاجتماعي والاقتصادي، متأثرين باتصالهم بالثقافة الغربية، من خلال البعثاتُ العلمية إلى الغرب، أو قراءة الكتب الغربية المترجمة بعد دخول المطابع إلى البلاد العربية وازدهار الصحافة.

وقد اتصل الشابي بالكثير من شعراء عصره – سواء المشرقيون منهم والمهجريون – بأفكارهم الجديدة؛ حيث نشر أولى قصائده في مجلة أبوللو في عام ١٩٢٩، ومع نشره قصيدته الثانية مع الردِّ على أحد منتقديه صار عضوًا بالجماعة عام ١٩٣٣ "وكان بين هؤلاء تشابه في بعض جوانب حياتهم، مع أن كل واحد منهم يعيش في بلد من بلدان الوطن العربي، لكنه كان يجمع بينهم حِسٌّ قومي ووطني واحد، وهو دعوة الشعب إلى النهوض لنيل الحرية من المحتل الجاثم على أرض الوطن العربي" [١]

وتُجمِع معظم الدراسات الأدبية على أن أكثر الشعراء تأثيرًا في الشابي هو جبران، حتى إنهم وصفوا الشابي بأنه تلميذ جبران، ولذلك جاء التأثير واضحًا – في الخصائص الفنية وفلسفة الحياة، حيث "قامت فلسفة جبران في حياته على الحب والحرية والتمرد، وهذه العناصر هي التي شكلت مضمونه الأدبي التي انبثق عنها رؤية الحياة في المشرق، وحددت أهدافه في الحياة المشرقية التي كانت غارقة آنذاك تحت وطأة الجمود والتخلف عن الركب الحضاري بعوامل استعمارية، فنشط الأدباء يبينون أسباب هذا الجمود ويثورون لنيل الحرية والاستقلال ..." [٢]

ومن خلال ثقافة الشابي ودراسته – واتصاله بالشعراء المعاصرين – أُشرِبَ آداب العرب الحديثة، ومن خلال الترجمات اطلع على آداب المغربيين، حيث لم يكن يجيد لغة

١ . السابق، ص ٧٩
٢ . السابق، ص ٨١

أخرى خلاف العربية، فتمرّد على ما تمرَّدوا عليه، واتهم بما اتهموا به، فكما قال جبران عن نفسه:

"أنا غريب، وليس في الوجود كله من يعرف كلمة نفسي: أنا شاعر أنظم ما تنثره الحياة، وأنثر ما تنظمه، ولهذا أنا غريب، وسأبقى غريبًا حتى تخطفني المنايا".

وقال الشابي عن نفسه:

إني أنا الروح الذي سيظلُّ في الدنيا غريبْ
ويعيشُ مضطلعًا بأحزان الشبيبة والمشيبْ
يا صميمَ الوجودِ كم أنا في الدنيا غريبٌ أشقى بغربة نفسي
بين قومٍ لا يفهمون أناشيدَ فؤادي ولا معاني بُؤسي" [1]

فكلا الشاعرين تمرَّد على واقعه وأحس بفجوة فكرية كبيرة يعيشونها دونه، ما يجعله – بوعيه – غريبًا بينهم يعاني المرارة وحده، وسيظل يعانيها طيلة حياته.

ويظهر تأثر الشابي بجبران كثيرًا، " ومن أبرز صور التاثر بينهما ما قاله جبران:

مَن يهوَ النورَ فالنورُ يهواه

فتلقف ذلك الشابي – متأثِّرًا غيرَ مقلِّدٍ – وصاغه بقوله:

ومَن ناجتِ النورَ أحلامُه يباركُه النورُ أنَّى ظهرْ

وهكذا كان تأثر الشابي بغيره من شعراء ذلك العصر"،[٢] وليس التأثر في توافق الصور الأدبية فقط، ولكنه – أيضًا – في طريقة التفكير والنظرة الثورية للمجتمع بما يعانيه من رجعية واستعصاء على التطور.

مظاهر الثورة عند أبي القاسم الشابي

هناك أمارات يستدل بها الباحث – والقارئ – على الجانب الثوري عند أبي القاسم الشابي، وهي تختلف – بالضرورة – بين باحث وآخر حسب قراءة كل منهم لشعره ولملابسات حياته وما كُتِبَ عنه..

[1] . السابق، ص ٨٢
[٢] . السابق، ص ٨٢

ومِن هذه الأمارات:

أ. **لجوؤه إلى الشعر:**

إذا كان الشعر هو المعبِّر عن المجتمع ولسانه الناطق في كثير من الأحوال، فإنه – من باب أولى – يعبر عن نفسه مترجمًا أحاسيسه وناقلها إلى الناس.. وأبو القاسم يجعل من شعره صديقًا له في كل الأحوال: في الصبابة والكآبة والشِّقوة .. وغيرها، فيقول:

يا شعر يا قيثارة الأحلام يا ابن صبابتي
لولاك مِتُّ بلوعتي وبشِقوتي وكآبتي
فيكَ انطوت نفسي وفيك نفختُ كلَّ مشاعري
فاصدحْ على قِمم الحياة بلوعتي يا طائري [١]

ومن حُسن حظ الشاعر – أي شاعر – أن يكون مصاحبًا لقلمه صادحًا بما تجيش به نفسه، فلولا الشعر لمات الشاعر كمدًا، وليست الروعة في صحبة الشاعر لشعره – فحسب، وإنما في اعترافه بقدره ومكانته منه، وبدلا من أن يفخر الشاعر بامتلاكه ناصية الشعر فإنه ينثني ليشكر شعره – مُتَنَفَّسَه الوحيد – مخاطبًا إياه بصريح اللفظ – تارةً، ومداعبًا إياه بقوله: يا قيثارة الأحلام، يا ابن صبابتي، يا طائري – تارة أخرى.

وتتصاعد وتيرة القرب – والعشق – بين الشاعر وشعره؛ فيقول:

أنتَ يا شعرُ فِلذةٌ من فؤادي تتغنَّى، وقطعةٌ من وجودي
فيكَ ما في جوانحي من حنينٍ أبديٍّ إلى صميم الوجودِ
فيك ما في خاطري من بكاءٍ فيك ما في عواطفي من نشيدِ
أنت يا شعر قصةٌ عن حياتي أنت يا شعر صورة من وجودي
أتحسَّاه في الحياة لأنسى ما تقضَّى من أمسِيَ المفقودِ
وأناجيه في المساء ليُلهيـ ـنيَ مَرآهُ عن ظلامِ الوجودِ
فيكَ ما في الوجود من نغمٍ حُلْـ ـوٍ، وما فيهمُ ضجيجٌ شديدُ [٢]

[١] . السابق ص ١٨٩
٢ .أبو القاسم الشابي، حياته وشعره، ص ٢٢٥ ، ٢٢٦

فلم تعد صلة الشاعر بشعره صلةَ تَقَارُبٍ – فحسب، وإنما يجعله قطعة من فؤاده وقطعة من وجوده، يذوب أحدهما في الآخر فيشعران – معًا – بالحنين والبكاء، ويلهوان – معًا – بما في الوجود من نغمٍ حلو، وذلك لقدرة الشعر على إغناء الشاعر عن سفاهات الناس ونقائصهم.. إن لجوء الشاعر إلى الشعر هو – في الحقيقة – لجوء لذاته هو؛ فما الشعر إلا وليدُه الذي يعمل على إراحته وإسكانه عند تخلِّي الناس عنه.. "إنني شاعر، وللشاعر مذاهب في الحياة تخالف قليلًا أو كثيرًا مذاهب الناس فيها، وفي نفسي شيء من الشذوذ والغرابة أحسُّ أنا به حين أكون بين الناس يجعلني أتبع سننًا ورسومًا تحبها نفسي، وربما لا يحبها الناس، وأفعل أفعالًا قد يراها الناس شيئًا محبوبًا، وألبَسُ ألبِسةً ربما يعدُّها الناس شاذة عن مألوفاتهم" [١]

وما دام الشعر ملاذه ومصدر سعادته واطمئنانه – وهذا مما لا شك فيه، فإن الشابي يوضح منهجه في قرض الشعر، وقد عبَّر عن ذلك بقوله:

لا أنظِمُ الشعرَ أرجو به رضاء الأميرِ
بمدحةٍ أو رثاءٍ تُهدَى لربِّ السريرِ
حسبي إذا قلتُ شعرًا أن يرتضيه ضميري [٢]

فهو يجعل ضميره نبراسًا لقبول الشعر دون أن يستدرَّ عطاء أمير أو صاحب عرش، أو يدغدغ مشاعر الناس برثاء، أو يقف مع فريق دون آخر بالهجاء..... ورغم حرصه الشديد فإنه لم يكن راضيًا عن بعض أشعاره؛ ويسخر كلما قرأها بعد مرور سنين كثيرة، "وإن قسمًا كبيرًا مما نُشِر لي لا أريد نشره؛ لأنني أراه لا أهمية له، إما في روحه أو في أسلوبه، ولأنني أرى فيه سذاجة كسذاجة الأطفال، أبتسم لها الآن، وأعجب لنفسي كيف سوَّلت لي نشره في حينه" [٣]

ب. **الثورة على قالب الشعر الموروث.**

لم تكن ملامح الثورة لدى الشابي في المعاني فقط، أو في تناوله جانبًا لم يتطرق إليه كثير ممن سبقوه، أو في استنهاض أبناء أمته ضد المستعمرين ومن عاونهم، أو في ثورته

١ . الشابي، مذكرات، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، القاهرة، ٢٠١٢ ، ص ٥٩
٢ . يوسف عطا الطريفي، أبو القاسم الشابي، حياته وشعره، الأهلية للنشر والتوزيع ٢٠٠٩ ص ٧١
٣ . عبد الله بن عبد الرحمن بن علي العريني، رسائل أبي القاسم الشابي، دراسة موضوعاتية ص ١٣٤

على أساليب الحياة .. وغير ذلك، ولكن امتدت – أيضًا – إلى الجانب الظاهري من شعره؛ فابتعد الشابي عن البديع المتكلف، ولم يتقيَّد بعمود الشعر الموروث عن القدماء، والذي يلتزم الوزن والقافية – الواحدة، فانتهج عدة أشكال للثورة الأدبية من تعدد القوافي في القصيدة الواحدة، لدرجة أنه في بعض الأحوال يقترب من الموشحات الأندلسية، مثل:

على ساحل البحر حيث يضجُّ صراخه الصباحُ ونوْحُ المَسا
تنهّدتُ مِن مهجـةٍ أُترِعَتْ بدمعِ الشقاءِ وشوكِ الأسى
فضاع التنهُّدُ في الضَّجَّةِ
بما في ثناياه مِن لوعةِ
فسِرتُ وناديتُ : يا أم ، هيَّا
إليَّ ؛ فقد سئِمتْني الحياة [١]

وهذه الصورة لم تُعرَف لدى السابقين، أحيانًا يكتب أبياتًا مكونة من تفعيلة واحدة، مثل قوله:

أنا كئيب
أنا كئيب
كآبتي خالفت نظائرها
غريبة عن عوامل الحزن
كآبتي فكرة مغرّدة
مجهولة في مسامع الزمن [٢]

وقد يكون تأثير قراءات الشابي لأشعار المعاصرين – وخصوصًا جبران – واضحًا، "أما التشابه في الخصائص الفنية فقد اتضح ذلك بينهما في تمجيد الفن والسمو به حين اتَّخذ جبران من الفن رسالة بعث وإحياء، فراح ينتقد التقاليد الأدبية التي تعنى بزخرفة اللفظ والبديع" [٣]

١ . يعتبر هذا من التشبيه المقلوب، فالمنطقي أن يقول : سئمت الحياة، ولكن قوله سئمتني الحياة يشير إلى أنه صار عبئًا على الحياة.
٢ . عاطف عبد اللطيف السيد، مظاهر الثورة في شعر أبي القاسم الشابي، ص ٨٣
٣ . أبو القاسم الشابي، حياته وشعره، ص ٨٣

ومن الملامح الواضحة في شعر الشابي التكرار، فيكرر حرفًا عدة مرات كالياء في قوله: (أنت قدسي، ومعبدي، وصباحي وربيعي، ونشوتي، وخلودي) [١] أو يكرر ضميرًا مثل:

أنت .. ما أنت؟ أنت اسم جميل عبقري من فن هذا الوجود
أنت .. ما أنت؟ أنت فجر من السّحـ ـر تجلى لقلبي المعمود [٢]

أو تكرار صدر البيت عدة مرات مثل:

يا لها من وداعة وجمال وشباب منعّم أملود
يا لها من طهارة تبعث التقديس في مهجة الشقي العنيد
يا لها من رقة تكاد يرف الورد منها في الصخرة الجمود [٣]

أو يكرر نفس الكلمة في بدايات الأبيات ويخبر عنها بأخبار عدة، ففي خطابه لقلبه يكرر الضمير (أنت) ثماني مرات ويتلوها بأخبار عدة.. وهو أمر فوق الحصر في شعر الشابي لدرجة لفتت غيره من الشعراء، فكان مأخذًا عليه: "فقد جاء على أبناء هذا القرن فترة من الزمن عدُّوا خلاله التكرار – في بعض صوره – لونا من ألوان التجديد في الشعر" [٤].

وكأني به يدافع عن نفسه بقوله: "أنا شاعر، والشاعر يجب أن يكون حرًّا كالطائر في الغاب، والزهرة في الحقل، والموجة في البحار" [٥] ويعبر عن ذلك مبيّنًا أن لكل عصرٍ أدبَه الذي يليق بأهله ويُشبع حاجاتهم، قائلًا: "لقد أصبحنا نتطلب حياة قوية مشرقة ملؤها العزم والشباب، ومن يتطلب الحياة فليعبد غده الذي في قلب الحياة... أما من يعبد أمسَه وينسى غده فهو من أبناء الموت وأنضاء القبور الساخرة... ولكن نعلم قبل ذلك بأننا جياع عراة، وأن تلك الثروة الطائلة الضخمة التي أبقاها لنا العرب لا تشبع جوعنا ولا تسد خلتنا؛ لعلنا إن شعرنا بفقرنا وعزنا تحركت فينا عوامل العزة الإنسانية، فطفقنا نعمل بعزم وقوة ما نستر به سواعدنا العارية ونطعم به أرواحنا الجائعة، ممّا نحوكه بأنفسنا ونستخرجه بأيدينا من

١ . الشابي، الديوان، شرح وتعليق، أحمد حسن بسج ٢٠٠٥ ، ص ٦١
٢ . السابق ، ص ٦٠
٣ . السابق ، ص ٦٠
٤ . نازك الملائكة ، قضايا الشعر المعاصر، دار العلم للملايين، ط ٤ ، بيروت، ١٩٧٤ ص ٩٦
٥ . الشابي، مذكرات، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، القاهرة، ٢٠١٢ ، ص ٥٩

مصانع الحياة" [١] فكأن الأدب قُوتٌ للشعوب، ولا يجوز أن يقتصر الناس – حاليًا – على اقتيات ما تركه أسلافهم، وهو في رأيه ذلك يعلم أنه سيصدم أبناء قومه – وأُمَّتِهِ، فيقول: "أقوله بكل صراحة وجلاء دون أن أغمغم به أو أجمجم، ...الذي يغضُّ منا معشر التونسيين هو أن نتخذ من هذا الأدب الذي لم يخلق لنا، ولم نخلق له غذاء لأرواحنا، ورحيقا لقلوبنا لا نرتشف غيره ...أقوله لأنه الحق وإن كنت أعلم أنه سيغضب طائفة كبيرة ممن يؤثرون الحياة على أكتاف الدهور الغابرة". [٢]

ت. **ثورته على أساليب الدراسة في المدارس والجامعات – آنئذٍ.**

من المنطقي أن يعمل الاحتلال – وأذنابه – على تخلف الشعوب المهيضة على كل الأصعدة: اجتماعيا واقتصاديا وثقافيا .. وغير ذلك، "فقد كانت المدارس المختلفة تضم 12,5 % من أبناء تونس و 87,5 % من أبناء فرنسا، وذلك على حسب إحصاء أورده عمر فروخ في كتابه عن الشابي". [٣]

فإذا ما نبغ في تلك الشعوب بعض أبنائها كانوا هم الهداة المصلحين لسائر الأمة، وكلما تقدموا خطوة زاد طموحهم في المزيد من الخُطى، وهو ما كان من الشابي – وأقرانه؛ حيث ظهرت مطالبات بإصلاح الزيتونة "لما قام الطلبة يطالبون بالإصلاح الزيتوني، كان الشابي أول رئيس للجنة الطلبة التي عقدت جلستها الأولى... وهو الذي عقد أول برنامج عمل للمطالبة بالإصلاح... وما زلت أذكر تلك الليلة التي واصلت فيها لجنة الطلبة العمل إلى الصباح، وذلك إثر إلقاء القبض على بعض الطلبة الذين اتُّهِموا بالتحريض على الاغتصاب [٤] ، وما أبداه الشابي من الثبات في الموقف والشجاعة المتناهية" [٥]

فقد كان الشابي من زعماء التجديد ما أهَّله لرئاسة عدة جمعيات – إصلاحية – فضلًا عن عضويته البارزة في تلكم الجمعيات، ومنها جمعية قدماء الصادقية التي "نادت

١ . الشابي ، الخيال الشعري عند العرب، ص 69
٢ . السابق، ص 69
٣ . رجاء النقاش، أبو القاسم الشابي، شاعر الحب والثورة ١٩٧٥ ص ١٠
٤ . أي قلب نظام الحكم
٥ . أبو القاسم محمد كرو، الشابي حياته وشعره، نقلا عن مجلة الأفكار التونسية، ديسمبر ١٩٣٦ م.

بالأفكار التحررية الجديدة، ودعت بقوة إلى الأخذ بمبادئ الحضارة العصرية، وكان الشابي عضوا في هذه الجمعية حيث ألقى بها محاضرته الهامة" [١]

كان لهذا التجديد أثره في كتابات الشابي، بل كان له أثر في حياته؛ حيث صار شيوخه يضيقون به ذرعًا؛ فهو لم يكن "ميالا إلى الدروس التي كانت تلقى في "الزيتونة" من علوم الأدب واللغة والفقه والشريعة؛ فالمنهاج لم يكن يتضمن دراسة الآداب والعلوم العصرية، كما أن شيوخ الزيتونة لم يكونوا راضين على تطرُّف الشاعر وشذوذه، ولا عن شعره". [٢] ولا عن آرائه في بعض القضايا التي غلبت على واقعهم وأسماها الكهانة والرجعية الدينية؛ فكان جبران يرى "أن الكهانة هي الحرفة الأولى التي ابتدعها الإنسان بدون حاجة حيوية أو داعٍ طبيعي لها" [٣].

ث. **ثورته على النظرة التقليدية للمرأة.**

لم يكن الشابي – بتكوينه المعروف عنه – ليسيرَ على النمط التقليدي الذي انتهجه السابقون في وصفهم للمرأة، ولكنه – تَتِمَّةً لنهجه الثوري – عاب عليهم النظرة القاصرة إليها والتي تهتم بجسدها وملامحها الخارجية أكثر من اهتمامهم بجانبها الروحي الذي يحتاج إلى التقدير والتبجيل كما يحتاج غيرها إليها لزينة الحياة، فيقول:

عذبةٌ أنتِ كالطفولة كالأحـ ... لامِ كاللحنِ كالصباحِ الجديد
أنتِ أُنشودةُ الأناشيدِ غنَّا ... كِ إلهُ الغناءِ ربُّ القصيد
أنتِ دنيا من الأناشيدِ والأحلا ... مِ والسحرِ والخيالِ المديد
كلما أبصَرَتْكِ عيناىَ تمشيـ ... ـنَ بخَطوٍ مُوَقَّعٍ كالنشيد [٤]

فالشاعر – هنا – يصفها بالعذوبة التي أحسها في كل حياته، من الطفولة البريئة والأحلام واللحن وجمال الصباح، ولتأكيد ذلك فإنه يكرر نفس العناصر من أحلام وأناشيد، ثم خرج من دائرة الحصر إلى مجال أوسع؛ فوصفها بالخيال الواسع.. ويظهر تأثره بآداب المهجر فجعل للغناء (إلهًا) يغنّي تلك الفتاة.. "هكذا كان الشابي – في فلسفته وفي

١ . رجاء النقاش، أبو القاسم الشابي، شاعر الحب والثورة ، ص ١٥
٢ . مجيد طراد، ديوان أبي القاسم الشابي ورسائله، دار العالم العربي، 1994 ، ص ١٠
٣ . محمد خليفة التليسي، الشابي وجبران، الدار العربية للكتاب، طرابلس، ١٩٨٤ ط ٥ ص ٢٥
٤ . أبو القاسم الشابي، الديوان، شرح: أحمد حسن بسج ٢٠٠٥ ، ص ٦٠ ، ٦١

عناصر تفكيره – نشوة صوفية قدسية لها علاقة بأحلام الروح وآلام الجسد، وهكذا كان الحب عنده يسمو في نفسه إلى حدِّ القداسة، لا تتنازعه شهوة بل يقتصر على النشوة، يستمدُّه من المرأة والطبيعة" [١]

واعتمد الشاعر التشبيه أسلوبًا في هذه المقطوعة بغرض التوضيح، فالمرأة كالطفولة والأحلام واللحن والصباح الجميلين، ويعمق الفكرة بالتشبيه البليغ فجعلها أنشودة بل دنيا من الأناشيد مرشّحًا التشبيه بصورة قلَّما توجد في الشعر الكلاسيكي، وكثيرًا ما وجدت في شعر الرومانتيكيين وهي غناء الإله لهذه الأنشودة، فاختار عناصر تتسامى بها المرأة عن الحسيات التي توارثها الشعراء اللاحقون عن السابقين؛ حيث "لم يعرف العربى تلك النظرة الفنية التى تعدُّ المرأة كقطعة فنية من فنون السماء ، يلتمس لديها الوحى والإلهام ، ولم يحاول الشاعر العربى أن يحس بما وراء الجسد من روح جميلة ساحرة تحمل بين جنبيها سعادة الحب ، ومعنى الأمومة وهما أقدس ما فى هذا الوجود" [٢]

ويبدو أن فكرة التغنّي تسيطر على فكر الشاعر بما يكتنفها من صوت عذب ولحن شجيٍّ وما يصحبها من جمال الطبيعة فجعل عيون المرأة لحنًا تغنيه الملائكة في الملأ الأعلى، فيقول:

أيُّ دنيا مسحورةٍ أيُّ رؤيا طالعتني في ضوءِ هذي العيونْ !
زُمَرٌ مِن مَلائكِ الملأ الأعـ لى يُغنُّونَ في حُنُوٍّ حَنونْ
في فضـاءٍ مُوَرَّدٍ سـاهٍ أطـافتْ به عـذارى الفتـونْ [٣]

فالشاعر يندهش بالجمال فيعبّر عنه – بالاستفهام التعجبي – غير مصدق لما يرى، فلم يجد له إلا صورة رومانسية روحية وهي غناء (الملائكة) في فضاء رحيب مليء بالورود عليه طوافاتٌ من العذارى الحسناوات.

ويذكر د. مصطفى هدارة بعض أوجه الشبه بين الشابي وشعراء المهجر، ومنها قوله: "موقفه من الحب والعاطفة الإنسانية، فشاعر الحب عند شعراء المهجر يدور حول الحنين إلى رفيقة الصبا وما تبع ذلك من ذكريات جميلة بينة المقاصد واضحة المعالم نبيلة

١ . أبو القاسم محمد كرو، الشابي حياته وشعره ص ٧٧
٢ . أبو القاسم الشابي شاعر الحب والثورة، ص ٢٣٨
٣ . أبو القاسم محمد كرو، الشابي حياته وشعره ص ٧٨ من الطويل

الأهداف، وهو عندهم عنصر مهم من عناصر الحياة، ولم يكن الحب لديهم أوصافا حسية للمرأة " [١]

"إن هذا التمجيد الذى نالته المرأة فى شعر الشابى ليس سوى تأييد منه لتصحيح وضعها فى المجتمع، والمناداة برفع القيود التى كبلتها على مر السنين " [٢]

دوافع اليأس والخمود عند الشابي:

لم تستمر لدى الشابي الثورة والانطلاق؛ إذ سرعان ما تكالبت عليه أمور أضعفت عزيمته، وأخمدت ثورته، وجعلته يرى في اليأس ملاذًا، ومن هذه العوامل ما كان مبعثها الشاعر نفسه، ومنها ما كان سببها بيئة الشاعر الضيقة أو مجتمعه بشكل عام أو سلبية المحيطين وتفكيرهم بطريقة تخالف تفكيره.. ومن هذه المؤثرات:

١. موت والده.

كان موت والد الشاعر فجيعة أذهلته وأثرت في مسار حياته؛ حيث اضطر إلى القيام بأعباء أهله رغم صغر سِنِّه وقلة خبرته بالحياة؛ "وفي هذه الأثناء (سنة ١٩٢٩) نُكِب بوفاة والده المحبوب، وقد رافقه عليلًا... وتجرَّع غصص مرضه، وطفحت الكأس بموته وهو في الخمسين من عمره، فاضطلع بأعباء عائلة كبيرة واختار طريقًا وعرًا... ورضي بحياة بسيطة على رأس أسرته بـ "تورز" حيث تزوج" [٣]

ويخاطب الشاعرُ الموتَ بأسًى مبينًا له مقدار ما ألحقَه به من أذى، فيقول في قصيدة له بعنوان (يا موت):

يا موت قد مزقتَ صدري وقصمتَ بالأرزاء ظهري
وقسوتَ إذ أبقيتني في الكونِ أذرَعُ كلَّ وعـرِ
وفجعتنـــي فيمن أُحبُّ ومَن إليه أبُثُّ سِـرّي
وأعدُّه فجري الجميـلَ إذا ادلَهَمَّ عليَّ دَهري
وأعُدُّه وَردي، ومِزماري، وكاســاتي، وخَمري
وأعُدُّ غابي، ومِحــرابي، وأُغنيتـي، وفجـري

١ . د. مصطفى هدارة دراسات فى الشعر العربى ص ١٨٣، ١٨٤
٢ . د. العربي حسن درويش، الاتجاه الرومانسي في شعر أبي القاسم الشابي، ص ٧٥
٣ . أبو القاسم الشابي، أغاني الحياة، الدار التونسية للنشر ١٩٧٠، ترجمة الشاعر بقلم/ محمد الأمين الشابي ص ١٤

ورزأتني في عُمدتي ومشــورتي في كل أمرِ
وهدمتَ صرحًا لا ألوذُ بغيرِه، وهتكتَ سِتري [١]

فالوالد بالنسبة للشاعر هو مأمَن السر، وفجره الجميل، وورده ومزماره وكاساته وخمره، وغابه ومحرابه وأغنيته وفجره، لذلك فإن الشاعر بعد رحيله صار مضطرًّا لركوب الصعب، ولتأكيد مكانة الوالد عنده فإن الشاعر يبدأ كل بيت بكلمة (أعدُّه)، ما يوحي أن كل وصف للأب هو في حقيقته مستقل بذاته عن غيره من الأوصاف، فلا يطغى وصف (للوالد) على غيره من الأوصاف.. وجاء انتهاء كل وصف بياء المتكلم للتعبير عما تجيش به نفس الشاعر، وكأنه ينفث همومه في كل منها.. كما أن كل ياء منها توحي بنسبتها إلى نفس الشاعر.. "وإن كان قد دخل معركة الحياة فإنما كان يدخلها بقلب الشاعر الحساس الذي يرى في حياة مجتمعه وحياة شعبه ما يدعو إلى الإقبال على هذه المعركة والاشتراك فيه، أما الآن فعليه أن يعول أسرته الخاصة، وكان متزوجا في ذلك الحين، وأن يعول إلى جانب ذلك الأسرة الأخرى التي تركها أبوه وراءه، وقد كانت هذه المسؤوليات الخاصة سببا من الأسباب التي لونت شعر أبي القاسم باللون الحزين الكئيب". [٢]

وفي خطاب الشاعر للموت استعارة بغرض التجسيد، وكأن الموت عدوٌّ له يمزق الصدر ويقصم الظهر ويقسو ويفجع، وقد فجعه في أعز الناس إليه.. وبالتالي فإن الشاعر يشعر بالفقد مرة تلوَ الأخرى.. فيقول:

ففقدتُ روحًا طاهرًا شهمًا يجيشُ بكل خيرِ
وفقدتُ قلبًا هَمُّه أن يستوي في الأفْقِ بدري
وفقدتُ كفًّا في الحياةِ يصدُّ عني كلَّ شـرِّ
وفقدتُ وجهًا لا يُعبِّسُه سوى حُزني وضُـرِّي
وفقدت نفسًا لا تَنِي عن صَوْنِ أفراحي وبِشرِي
وفقدتُ رُكني في الحياةِ ورايتي وعِمادَ قَصري [٣]

[١] . يوسف عطا الطريفي، أبو القاسم الشابي، حياته وشعره، ط ١ ، ٢٠٠٩ ص ٢٣٥
٢ . رجاء النقاش، أبو القاسم الشابي، شاعر الحب والثورة ١٩٧٥ ، ص ١٦ ، ١٧
٣ . يوسف عطا الطريفي، أبو القاسم الشابي، حياته وشعره، ط ١ ، ٢٠٠٩ ص ٢٣٥ من الكامل

يوضح الشاعر حالته البئيسة – بعد موت والده – بأنه فَقَدَ ما لا يحتمل فقده مِن معنى وحِسٍّ؛ إذ كان الأب له الروح الطاهرة والقلب المحبَّ والنفس الصائنة، وكان الكفَّ الحارس والوجه الباسم.. ولذلك فإنه ينعي كل هذه الأمور ويكرر مع كل منها كلمة (وفقدت)، وكل منها تقابل في المقطوعة السابقة كلمة (وأعدُّه)، فكأن الشاعر يبني والموت يهدم، ولذلك لم يقدم الشاعر لقصيدته أي تقديم، وإنما بدا بوجه الثائر في وجه الموت يعدِّد أخطاءه في حقه وآثار ذلك.. وقد قام الشاعر باستخدام الاستعارة لتجسيد كل ما فقده وتأكيد فجيعته، وأنه ليس مجرد حرمان – ابتداءً، ولكنه سلبٌ بعد فقدٍ .. وقام بترشيح كل استعارة منها لبيان أن ما فقده يفوق مثيله عند سائر الناس.. وللقارئ أن يفهم مدى انكسار الشاعر جرَّاء ما فقد من خلال إهدائه أول مطبوعة له (الخيال الشعري عند العرب)، قال فيها: "إلى حضرة الوالد الكريم الشيخ سيدي محمد بن بلقاسم الشابي الذي رباني صغيرًان وثقفني كبيرًا، وأفهَمَني معاني الرحمة والحنان، وعلَّمني أن الحق خير ما في هذا العالم، وأقدسُ ما في الوجود.. أتقدَّم بهذه الصفحات التي هي أول عمل أخرجتُه للناس وأنا أرجو أن أكون قد توخَّيْتُ فيه صراحة الصدق وجمال الحقيقة" [١] فمن الطبيعي أن يرى الحياة – بعد والده – ليلًا دائمًا جعله يبحث عن الصباح ويلتمس إلى المحيطين به مساعدته في البحث عنه فيقول:

يا بَني أُمِّي تُرَى: أين الصباحْ؟ قد تولَّى العُمرُ والفجرُ البعيدْ
وطغَى الوادي بمشبوبِ النُّواحْ وانقضت أُنشودةُ الفصلِ السعيدْ
أين نايي؟ هل ترامته الرياح؟ أين غابي؟ أين محرابُ السجود؟
يا بناتِ الليل، هل غاص الصداح منذ طاشتْ نشوةُ العيشِ الحميد؟
يا بني أمي، تُرَى أين الصباح؟ هل وراءَ البحرِ أم خلفَ الوجود؟
يا بني أمي، تُرَى أين الصباح؟ [٢]

يتضح من تعدد الاستفهام أن الشاعر طاش وفقد صوابه، فراح يسأل عن مَرسَى لحيرته متمثِّلًا في الصباح موجهًا سؤاله إلى إخوته – أقرب الناس إليه بعد والده – عدة

١ . أبو القاسم الشابي، حياته وشعره، ص ١٩، ٢٠
٢ . أبو القاسم الشابي، حياته وشعره، ص ٢٣٠ ، من الرمل

مرات، متسائلًا عن مصدر بهجته – الناي – وأمانه الروحي – محراب السجود، ثم يوجه سؤاله إلى النجوم – بناتِ الليل – وهي أولَى مَن يُسأَل عن الصباح المفقود.. ولتأكيد حيرته فإن ردًّا لم نسمعه على ألسنة مَن لجأ إليهم الشاعر.. ويستخدم التصدير [١] لبيان حيرته وانشغاله بالبحث عن الصباح.

ويتحدث – بجانب الألم النفسي – عن واقع إخوانه الصغار والمشقة التي يجدها في سبيل رعايتهم بعد وفاة والدهم قائلًا:

فقدوا الأبَ الحاني، فكنتُ لضعفِهِم كهفًا يصُدُّ غوائلَ الأيـامِ
ويقيهِمُ وهجَ الحياةِ ولفحَها ويذودُ عنهم شِـرَّةَ الأيـامِ
فأنا المكبَّلُ في سلاسلِ حيَّةٍ ضحَّيتُ – مِن رأفي بها – أحلامي
وأنا الذي سكنَ المدينةَ مُكرَهًا ومشى إلى الآتي بقلبٍ دامِ
وأنا الذي يحيا بأرضٍ قَفرَةٍ مَدحُوَّةٍ للشـكِّ والوهـامِ [٢]

وبدلًا من أن يفخر بنفسه – وتكراره كلمة أنا – نجده يصف حاله وهو المكبَّل والمُكرَه وساكن القفار، وكلها صفات لا تدعو للفخر بل الرثاء؛ فالسلاسل تكبّله والأحلام مُضَحًّى بها، والقلب دامٍ والمدينة يسكنها مُكرَهًا.. ومن كانت هذه حالُه كان أقرب غلى الانكسار – الذي لم يعهده – منه إلى الثورة التي عاش عليها طيلة حياته.

٢. موت الفتاة الوحيدة التي أحبها في صغره.

كما سبق فإن الشابي كان كثير الترحال داخل الأراضي التونسية، ما جعله محدود الصلات بالناس، فإن أضيف إلى ذلك مكونات شخصيته الشاعرية الحساسة وجدنا أن أقل الندوب أو الخدوش – فضلًا عن الأحداث الكبرى – تترك في نفسه جرحًا عميقًا، ولا أصعب على نفس شاب شاعر مُحِبٍّ من فقدان محبوبته في تلك السن المبكرة التي لم يكن بالنضج الذي يجعله يحتمل تلك الصدمة أو يتجاوزها بدون خسارة.. وهو ما وقع فيه

١ . ابن أبي الإصبع المصري، تحرير التحبير في صناعة الشعر والنثر وبيان إعجاز القرآن، تحقيق: حفني محمد شرف، ط المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، القاهرة ٢٠١٢ ص ١١٧ ، والتصدير هو تكرار كلمة أو جملة في بداية الكلام ونهايته.

٢ . رجاء النقاش، أبو القاسم الشابي، شاعر الحب والثورة، ص ٩٩ ، من الكامل

شاعرنا حين فقدَ محبوبته، ما جعله يستدعي الماضي البهيج الذي اغترَّ به وكاد يركَن إليه ولكن المفاجاة آلمتْه فأفاق على الحاضر المؤلم – المُحبِط، فيقول:

كنا كزوجيْ طائرٍ، في دوحةِ الحبِّ الأمينْ
نتلو أناشيدَ المُنى بينَ الخمائلِ والغصونْ
متغرِّدين مع البلابلِ في السهولِ وفي الحزون
ملأ الهوى كأسَ الحياة لنا، وشعشعها الفتونْ
حتى إذا كدنا نُرَشِّفُ خمرَها، غضبَ المضنونْ
فتخطَّفَ الكأسَ الخَلوبَ، وحطَّم الجامَ الثمينْ
وأراقَ خمرَ الحبِّ في وادي الكآبةِ والأنينْ
وأهابَ بالحُبِّ الوديعِ، فودَّعَ العُشَّ الأمـينْ
وشدا بلونِ الموتِ في الأفْقِ الحزينِ المستكينْ
ثمَّ اختفى خلفَ الغيومِ كأنه الطَّيفُ الحزينْ [١]

لقد رسم الشاعر صورة فنية كاملة بكل أبعادها: من صوت التغريد مع الطيور وقرع الكؤوس، وألوان الخمر المشعشعة، والحركة في رشف الخمر والحركة العنيفة للموت.. فمن ذا الذي لا يعجبه منظر طائرين التقيا في خميلة بين الأطيار والأزهار والأشجار، يتبادلان كؤوس الخمر، فلما أن كادا أن يشربا نزع الموت الكؤوس وأراق الخمر وطرد الحب من العش الهادئ وبدأ بالألحان الجنائزية ، ثم اختفى !

ورغم أن الشاعر كان يذكر الموت في شعره – بين الفينة والأخرى – فقد آثرت الباحثة ذكر هذه المقطوعة – على طُولِها؛ نظرًا لتكثيف الأحداث وشمولها لكل عناصر التجربة الشعرية، واعتماد الشاعر على الأضداد في بيان حاليه قبل الموت وبعده.. لقد كان الموت متربّصا بهما تربُّص العدو بعدوه، ينتظر غفلتهما أو ركونهما ليهجم هجومًا عنيفًا، فلما سنحت الفرصة كان كالسباع الضارية مع فرائسها.. ثم اختفى

[١] . السابق، ص ٢٠١ من الكامل

٣. تعرُّضه لمرضه في سنٍّ مبكرة.

يعتبر القلب بالنسبة للشاعر هو الهادي والمترجم والميزان، الهادي إلى ملكات النفس والعالم الخارجي بكل ما فيه، والمترجم لما يجده من مشاهد وأحداث، والميزان الذي يزن به الشاعر مشاعره الخاصة تجاه الأشخاص والأشياء والأحداث والتجربة الشعرية عامة.. وتتعاظم وظيفة القلب كلما كان حِسُّ الشاعر رهيفًا، يظهر ذلك بجلاء لدى الشابي الذي عاش بين الطبيعة وتنقل بين الحدائق والجبال، وعاش قضايا قومه بحلوها ومُرِّها.. فيتغزّل في قلبه – بعد تيقُّنَه من مرضه – مستعيدًا ما كان بينهما بقوله:

يا قلبُ كم قد تملَّيتَ الحياة، وكم ... راقصتَها مرحًا ما مَسَّكَ السَّأمُ
وكم توشَّحتَ مِن ليلٍ ومِن شَفَقٍ ... ومِن صباحٍ تَوشَّى ذيلَه السُّدُمُ
وكم نسجْتَ من الأحلامِ أرديةً ... قد مزَّقتْها الليالي وهْي تبتسمُ
وكم ضفرْتَ أكاليـلًا مُوَرَّدةً ... طارت بها زعزعٌ تدوي وتحتدِمُ
وكم رسمتَ رُسومًا لا تشابهُها ... هذي العوالمُ والأحـلامُ والنُّظُمُ
كأنها ظُلَلُ الفردوسِ حـافلةً ... بالحُورِ ثم تلاشتْ واختفى الحُلُمُ
تبلو الحياةَ فتُبلِيهَا وتخلعُها ... وتستجِدُّ حياة ما لها قِدَمُ
وأنتَ أنتَ شبابٌ خالدٌ نَضِرُ ... مثلُ الطبيعة: لا شَيْبٌ ولا هرَمُ [١]

من الواضح أن الشاعر يسترجع ذكرياته مع قلبه معتزًّا بها، ولكثرة تلك الذكريات فقد استخدم الشاعر كلمة (كم الخبرية)، ولبيان أن جميع الذكريات قد انتهت فإن الشاعر يكثر من الأفعال الماضية (تملَّيت، راقصتَها، توشحت، نسجت، ضفرت، رسمت، طارت....) وغيرها، ولكنه في البيت قبل الأخير يستخدم أفعالًا مضارعة – كلها (تبلو، تبليها، تخلعها، تستجد)؛ ليدل على أن قلبه ما زال يصارع الحياة فيُفنيها وينتقل إلى حياة أخرى جديدة.. وليس ثم من عجب أن الخطاب لقلبه يبوء بلا ردٍّ، وللقارئ أن يستشعر مدى معاناة قلبه وعجزه عن الرد.

فإذا مرض ذلك القلب في سِنٍّ مبكرة فإن الألم يتضاعف، والإحساس بالألم يكون من دواعي زيادة الألم "وفي السنة نفسها [٢] أصيب بداء تضخُّم القلب، وهو في الثانية والعشرين

[١] . يوسف عطا الطريفي، أبو القاسم الشابي، حياته وشعره، ط ١ ، ٢٠٠٩ ص ٢٤٥ من البسيط

من عمره، بيد أنه رغم نهي الطبيب لم يقلع عن عمله الفكري.... ولم يكن الشاعر المريض يغادر "تورز" إلا في الصيف ويقصد المصطافات الجبلية" [١]

ما الذي قد أتيتَ يا قلبيَ الباكي؟ وماذا قد قُلتِه يا شفاهي؟
يا إلهي، قد أَنطقَ الهمُّ قلبي بالذي كان.. فاغتفِر يا إلهي
قدمُ اليأسِ والكآبةِ داستْ قلبيَ المتعبَ الغريبَ الواهي
فتشظَّى .. وتلك بعضُ شظاياه، فسامِحْ قُنوطَه المتناهي
فهْوَ يا ربِّ معبدُ الحقِّ والإيمانِ والنورِ والنقاءِ الإلهي
وهْو نايُ الجمالِ والحبِّ والأحلامِ، لكنْ قد حَطَّمتْه الدواهي [٢]

فالشاعر يقع في حيرة تجعله مضطربًا بين سؤال قلبه عما وصل إليه وشفاهه عما نطقت به، ويعتذر إلى الله – تعالى – عن تطاوله في جنبه – واحتجاجه ، معللًا ما كان منه بما آل إليه.. وكعادة الشاعر في استخدام الأضداد فإنه يذكر حال قلبه الذي كان معبد الحق والإيمان والنور والنقاء الإلهي وغير ذلك من المعاني السامية، ولكي يوضح مدى المأساة فإن الشاعر يفاجئ القارئ بأن الدواهي قد حطمته.. "وقد صبغ هذا المرض حياة الشابي بالحزن؛ لأنه كان يقاومه وهو يعلم أنه أقوى من العلاج، و أقوى من علم الأطباء وخبرتهم، وكان يكتم آلامه في نفسه ليعبر عنها في شعره". [٣] ما لا يملك معه إلا الشكوى لله تعالى باستخدام أداة النداء في البيت الثاني، والذي أردفه بقوله:

يا إله الوجودِ، هذي جِراحٌ في فؤادي تشكو إليكَ الدواهي [٤]

"وقد صبغ هذا المرض حياة الشابي بالحزن، لأنه كان يقاومه وهو يعلم أنه أقوى من العلاج، و أقوى من علم الأطباء وخبرتهم، وكان يكتم آلامه في نفسه ليعبر عنها في شعره". [٥]

---

[٢] . أي سنة وفاة والده في ١٩٢٩
[١] . أبو القاسم الشابي، أغاني الحياة، الدار التونسية للنشر ١٩٧٠، ترجمة الشاعر بقلم/ محمد الأمين الشابي ص ١٤
[٢] . يوسف عطا الطريفي، أبو القاسم الشابي، حياته وشعره، ط ١ ، ٢٠٠٩ ص ٢٣٧، ٢٣٨ من المتدارك
٣ . رجاء النقاش، أبو القاسم الشابي، شاعر الحب والثورة ١٩٧٥ ، ص ٢١
٤ . السابق، ص ٢٣٩ من المتدارك
٥ . رجاء النقاش ، أبو القاسم الشابي، شاعر الحب والثورة ١٩٧٥ ، ص ٢١

وفي أسًى يخاطب الشاعر قلبه فيكشف له الكثير من جوانب ضعفه – وكأنه يواسيه، قائلًا:

أنتَ يا قلبيَ قلبٌ أنضجَتْه الزفراتْ
أنتَ يا قلبيَ عشٌّ، نَفِرتْ منه القطاةْ
أنت حقلٌ مُجدِبٌ قد هزَأت منه الرعاة
أنتِ ليلٌ مُعتِمٌ ، تندِبٌ فيه الباكيات
أنتَ كهفٌ مظلِمٌ، تأوي إليه البائساتْ
أنتَ قبرٌ، فيه مِن أياميَ الأولى رُفاتْ
أنتَ عُودٌ، مزَّقتْ أوتارَه كفُّ الحياة
أنتَ لحنٌ ساحرٌ يخبِطُ في التيهِ الموات [١]

وأحيانًا عبّر عنها في نثره مقارنًا بين ضعفه الجسمي وقوة الصبيان والشباب الذين يلعبون ويرتادون الهواء الطلق دونه وهو عاجز عن مجاراتهم بأمر الطبيب، "ها هنا صبيةٌ يلعبون بين الحقول، وهناك طائفة من الشباب الزيتوني والمدرسي يرتادون في الهواء الطلق والسهل الجميل، ومَن لي بأن أكون مثلهم؟ ولكن أنَّى لي ذلك والطبيب (يحذر) عليَّ ذلك لأن بقلبي ضعفًا؟.. آه يا قلبي ! أنت مبعث آلامي ومستودع أحزاني، وأنت ظلمة الأسى التي تطغى على حياتي المعنوية والتاريخية" [٢] ما يوضح مقدار ما يعانيه من ألم على واقعه الصحي المتردّي.. ومن الضروري أن يكون لذلك التردي أثرَه على نفسية الشاعر، فإن كان لا يمكنه مجاراة أقرانه في اللعب والتريُّض فمن باب أولى اجتنابُه دوافع الثورة ومظاهرها.

٤. تخلّي الشعب عنه وعن دعوته لليقظة.

كما سبق فإن الشاعر يشعر بما لا يشعر به عموم الناس، وقد يسبقهم فكرًا أو شعورًا، يجترُّ آلام الماضي وآماله، ويستقرئ الحاضر بحلوه ومُرّه، فيتكهن ببعض ما قد يكون في المستقبل، وليس بالضرورة أن يكون الناس في نفس قامته الفكرية أو الشعورية، فيبدو كثيرًا

١ . يوسف عطا الطريفي، أبو القاسم الشابي، حياته وشعره، ط ١ ، ٢٠٠٩ ، ص ٧٣
٢ . د. عمر فروخ، الشابي شاعر الحب والحياة، دار العلم للملايين، بيروت، ط ٣ ص ١٧

وكأن الشاعر يتكلم وحده حتى ييأس منهم، فيجد راحته في الانعزال ويأمر نفسه بالسكوت، فيقول:

ولما ندبتُ ولم ينفعِ
وناديتُ أمي ولم تسمعِ
رجعتُ بحزني إلى وحدتي
وردَّدتُ نوْحي على مسمعي
وعانَقتُ في وحدتي لوعتي
وقلت لنفسي: "ألا فاسكتي" [١]

لقد استنسخ الشاعر من نفسه شخصًا يحاوره فيستجيب، وينادي فيسمعه إذ لم يسمعه أحد – حتى أمه – ويعانقه إذ لم يجد من يعانقه، ويهدِّئ نفسه في غيبة مَن يعمل لتهدئتها، ولعله في ذلك سائر على نهج "قفا نبكِ" لدى الشعراء القدامى.

وتمنَّى لو كان حطَّابًا يهوي بفأسه على الجذوع [٢] بفأسه، فيقول:

أيها الشعب ليتني كنت حطَّا بَا فأهـوِي على الجذوعِ بفأسـي
أنت روحٌ غبيَّةٌ تكره النُّـو رَ ، وتقضي الدهور في ليل ملس
أنتَ لا تدرِكُ الحقائقَ إن طا فتْ حواليكَ دون مسٍّ وجَسِّ [٣]

فبعد أن تخاذل الشعب عن الاستجابة راح الشاعر يكيل له الاتهامات بالغباء والغفلة وعدم إدراك الحقائق، ولا يلجأ الشاعر إلى المجاز في اتهاماته وإنما يواجه له اللوم بشكل صريح، معبِّرًا عن مدى ما وصل إليه من يأس، حيث "تشير البيانات المدونة في هامش الديوان أن القصيدة تم نظمُها في 3 أوت 1934 ، أي أنها كتبت (شهران)[٤] قبل وفاة الشابي، إن لم نقل آخر ما نظم الشاعر، ومعنى ذلك أنه بلغ الدرجة القصوى من اليأس ، وأن مأساته وصلت منتهى الذروة، فلا أمل في التغيير على الإطلاق، والواقع فإن القصيدة والبالغ عدد أبياتها ستون بيتا، هي صورة مجسدة لمأساة الشابي في العقد الرابع من القرن

[١] . مجيد طراد، ديوان أبي القاسم الشابي ورسائله، دار العالم العربي، ١١٦ من المتقارب
[٢] . أي الشعب الذي لا يكاد يتحرك.
[٣] . مجيد طراد، ديوان أبي القاسم الشابي ورسائله ، ص ١١٧ من المتدارك
[٤] . هكذا في المصدر

الماضي، حينما أحس قرب نهايته، وأنه سيغادر هذا الوجود، دون الظفر بمعركة مع الحياة والمجتمع، وأنه سيترك شعبه مكبلا بسلاسل التقاليد القديمة التي أفسدت روحه" [١]

مظاهر الاستكانة عند أبي القاسم الشابي

تكثر دوافع الاستكانة لدى الشاعر، وكأن الدنيا التي سرَّته يومًا ساءته أيامًا، والتي جمعت له أسباب السعادة – سابقًا – من شباب ثائر وأبٍ مستنير ويقظة فكرية ونهضة أدبيَّة وإقبال على الحياة.. وغير ذلك، هي هي التي سلّطت عليه أسباب الشقاء – وهي كثيرة، ومنها:

أ. **اليأس**

مهما تكن حماسة الثائر فإنه لا يستطيع أن يواجه المصاعب بمفرده، وإنما يسعى – غالبًا – إلى مَن يترجم أفكاره لتصير واقعًا ملموسًا في مواجهة واقع مَثُورٍ ضده، ولا شك أن للثائر طاقة ورؤية؛ فإن لم يجد النصير – أو أحس بتخاذل مَن ينتظرهم – دبَّ فيه اليأس فخلا بنفسه لتكون ملاذه الذي لا يتبرَم به أو يفرُّ منه.. وهذا ما وصل إليه الشابي بعد أن يئس من نفاذ ثورته، فقال – من قصيدة النبي المجهول – آسفًا على مَن لم يسمعه من أبناء شعبه:

إنني ذاهب إلى الغاب يا شعـ ـبي لأقضي الحياةَ وحدي بيأسِ
إنني ذاهبٌ إلى الغاب ؛ عَلِّي في صميمِ الغاباتِ أدفنُ بُؤسي
ثم أنساكَ ما استطعتُ، فما أنـ ـتَ بأهلٍ لخمرتي ولكأسـي
سوف أتلو على الطيور أناشيـ ـدي وأفضي لها بأشواقِ نفسي
فهْيَ تدري معنى الحياةِ وتدْ ري أن يقظة النفوسِ يقظةُ حِسّ
ثم أُفضي هناك في ظلمة الليـ ـلِ وألقي إلى الوجودِ بيأسي
ثم تحت الصنوبرِ الناضرِ الحلْـ ـوِ تَخُطُّ السيولُ حفرةَ رمسي
وتظلُّ النفوسُ تمشي حواليْ يَ كما كُنَّ في غضارةِ أمسي [٢]

[١] . نوال سي صابر، صدار نور الدين، شعر أبي القاسم الشابي، دلالة الرؤية والأداة، مقاربة بنيوية تكوينية، مجلة كلية الآداب واللغات، جامعة مصطفى اصطنبولي، ٢٠٢٠، عدد ١ ، ص ١٢١

[٢] . مجيد طراد، ديوان أبي القاسم الشابي ورسائله ، ص ١١٧ ، ١١٨ من المتدارك

ويمكن استشفاف ما يرمي إليه الشاعر بمجرد قراءة العنوان؛ فهو يستوحي معاناة كل نبي من الأنبياء – عليهم السلام – مع شعبه، ولجوءه إلى الهجرة، ولكي لا يقع في حرج شرعي فقد جعل نفسه مخالفًا لطبيعة كل الأنبياء؛ فسمى نفسه "النبي المجهول" ، كما أنه عند الهجرة أعلن مكان هجرته، وأنها لن تكون لدعوة أقوام آخرين وإنما إلى الغابات حيث الخلوة بنفسه والأُنس بها، وإن كان مِن مدعُوٍّ فسيكون الطيور وذلك لأنها أكثر إصغاءً واستجابة.. ولا يمنع احتياطُه وحذرُه من ذكر المخاطبين بقوله (يا شعبي) جاعلًا إياهم كيانًا واحدًا بكلمة (أنت).

وهو في ذلك حريص على قومه إذ ينذرهم بقوله: (إنني ذاهب) أكثر من مرة مؤكدًا بجانب ذلك بكلمة (وحدي) علَّهم يدركون تقصيرهم في جانبه ويمنعونه من الرحيل، وبخاصة إن كان رحيلا بلا عودة، وذلك لأنه سيبقى حتى تحفر له السيول قبرا يزوره الناس.. كما أن الشاعر يعلل تغيير وجهته وذلك أن الطيور ستصغي إليه وظلمة الليل ستشاركه في احتمال يأسه.

ويعبر عن أمنيته السابقة – بالمعاني نفسها – ما يوحي بأنه صار أسيرًا لتلك الأفكار بكل عناصرها – تقريبًا، فيقول:

ليت لي أن أعيشَ في هذه الدنْـ يا سعيدًا بوحدتي وانفرادي
أصرِفُ العمرَ في الجبالِ وفي الغا باتِ بينَ الصنوبـرِ الميَّـادِ
أرقُبُ الموتَ والحيـاةِ وأُصغي لحـديثِ الآزالِ والآبـــادِ
وأغنِّي مع البـلابل في الغا بِ ، وأُصغي إلى خريرِ الوادي
وأناجي النجومَ والفجرَ والأطْـ يارَ والنهرَ والضـياءَ الهادي
لا أُعَنِّي نفسـي بأحزانِ شعبي فهْوَ حيٌّ يعيشُ عَيْشَ الجمـادِ
وبعـيدًا عن المـدينـة والنا سِ بعيدًا عن لغوِ تلك النوادي[1]

فكما قال في المقطوعة السابقة (يا شعبي) فإنه يقول في هذه المقطوعة (أحزان شعبي)، وإن كان في المقطوعة السابقة يتلو أناشيده على الطيور فإنه في هذه المقطوعة يغني معها، وكان في الجلسة السابقة يجلس تحت الصنوبر وهو هنا يتنقل بين أشجار

[1] . السابق ، ص ٨٧ من المتدارك

الصنوبر، وكما انتظر في المجموعة السابقة أن تجهز له السيول قبرًا فإنه – هنا – يراقب الموت.

إنه يتمنى أمنية – تبدو مستحيلة – وهي أن يعيش وحيدًا سعيدًا، يصرف العمر في الجبال ويستمع لأحاديث الماضي والمستقبل ويغني مع البلابل ويراقب النجوم ولا يشغل باله بهموم قومه الذين يعيشون بلا حراك.. وهو يجمع بين الأضداد من الموت والحياة، ومن سماع أحاديث الآزال والآباد، ومن حركته الدؤوب وجمود شعبه الذي يشبه الجمادات.

والشاعر يستخدم الأفعال المضارعة (أعيش، أصرف، أراقب، اغني، أناجي ....) ليعيش المستقبل ويستديمه، ولكن ذلك – بالطبع – لم يتحقق له لأنه يسوقه في إطار الأمنيات المستحيلة منذ البيت الأول بقوله: (ليت لي).

ب. **إحساسه بالغربة.**

يتميز الشاعر بصفات قلما توجد لدى غيره من الناس، فهو يشعر بآلام قومه وآمالهم، فيحذرهم من أسباب الآلام ويوجههم إلى كيفية تجاوزها، وينمي آمالهم ويحتفل معهم بتحقيقها، وليس من السهل مروره بالهدفين السابقين، وإنما يمر بعقبات ومعاناة يشعر بها – وحده – ولا ينتظر من قومه إلا الدعم النفسي وتقدير معاناته والاستجابة لما يهديهم إليه، فإن لم يستجب له أبناء قومه فإنه يستشعر الغربة بينهم، وهو ما لاقاه الشابي؛ فبعد أن أفنى عمره في إيقاظ شعبه لم يجد منهم ما يُثلج الصدر، فعبَّر عن معاناته شعرًا ونثرًا، فيقول:

يا ليت شعري هل لليْـ ـل النفس من صبح قريب؟
فتقرّ عاصفة الظلا م، ويهجع الرّعد الغضو ب
ويرتل الإنسـان أغْـ ـنية مع الدنيـا، طروب
ما لي تعذبني الحيا ةُ كأنني خلق غـريب
وتهدّ من قلبي الجميـ ـل فهل لقلبي من ذنوب ؟ [١]

فهو يجسِّد كثيرًا من الأمور يجعلهم أعداءه؛ فعاصفة الحياة لا تهدأ، والرعد لا يهجع، والإنسان لا يطرب لأغاني الحياة، والحياة لا تكف عن تعذيبه متسائلًا إن كان قلبه قد

١ . السابق، ص ٤١ ، ٤٢ من الكامل

أذنب ذنبًا لا يجد فكاكًا من احتمال تبعاته، ولما علم مسبقًا أنه لن يجد ردًّا نجده يستلهم موروث الشعر فيبدأ بقوله (يا ليت شعري).. فإذا كان كل شاعر غريبًا في قومه – غالبًا – فإن مأساة الشابي تزداد بإدراكه لتلك الغربة، ذلك أن "قهر الاغتراب سيتم من خلال تغلب الوعي على انقسامه وتحقيق وحدته وهويته واسترداد حريته".[١] فيقول الشابي معبّرا عن شعوره بالغربة – بين قومه: "الآن أدركت أني غريب بين أبناء بلادي .. تلك مأساة قلبي الدامية" [٢]، ثم يفصل أسباب غربته معبّرًا عن مدى آلامه، فيقول: "أشعر أني غريب في هذا الوجود، وأنني ما ازدادَ يوم في هذا العالم إلا وأزدادُ غربة بين أبناء الحياة وشعورا بمعاني هاته الغربة الأليمة، غربة من يطوف مجاهل الأرض ويجوب أقاصي المجهول، ثم يأتي ليحدث قومه عن رحلاته البعيدة فلا يجد واحدا منهم يفهم من لغة نفسه شيئا" [٣] ، ويؤكد نفس الفكرة بنفس الأسباب في موضع آخر، فيقول: "أمَّا الآن فقد يئست؛ إنني طائر غريب بين قوم لا يفهمون كلمة واحدة من لغة نفسه الجميلة، ولا يفقهون صورة واحدة من صور الحياة الكثيرة التي تتدفق بها موسيقى الوجود في أناشيده.. الآن أيقنت أنني بلبل سماوي قذفت به يد الألوهية في جحيم الحياة، فهو يبكي وينتحب بين أنصاب جامدة لا تدرك أشواق روحه، ولا تسمع أنات قلبه الغريب ... وتلك هي مأساة قلبي الدامية" [٤]

ت. **إحساسه بالظلم ممن حوله.**

مع عدم إدراك المحيطين به لدعوة الشاعر أو استجابتهم لنداءاته فإنه – بلا شك – يستشعر الظلم الواقع عليه من قِبَلِهم، ظلمًا يستجلب السخط والذم، فيقول:

هكذا قال شاعر فيلسوفٌ عاش في شعبِه الغبيّ بتَعْسِ
جهِلَ الناسُ رُوحَه وأغانيـ ـها فساموا شعورَه سوْمَ خَسْفِ
فهْوَ في مذهبِ الحياةِ نبيٌّ وهْو في شعبِه مُصابُ بِمَسّ
هكذا قال ، ثم سار إلى الغا بِ ليحيا حياة شعرٍ وقُدسِ [٥]

١ . محمود رجب، الاغتراب، ج 1 ص ١٦٩
٢ . الشابي، مذكرات، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، القاهرة، ٢٠١٢ ، ص ٢٧
٣ . السابق ، ٢٠١٢ ، ص ٢٧
٤ . السابق ، ٢٠١٢ ، ص ٢٧
٥ . مجيد طراد، ديوان أبي القاسم الشابي ورسائله، دار العالم العربي، ص ١١٩ من المتدارك

فالمقطوعة مبنية على التضاد بين الشاعر وقومه؛ فهو فيلسوف وهم أغبياء، وهو يحمل روحًا طَرِبَةً وهم يكتمون صوته، وهو – لو علموا – نبي وهم يتهمونه بالجنون.. ما يجعله في النهاية يتركهم منصرفًا إلى عالَمِه الخاص ليعيش عيشة الفيلسوف بشعره والنبي بطُهرِه.. والشاعر في المقطوعة يستخدم الأفعال الماضية ليؤكد عوامل لجوئه إلى الشكوى واستحقاقه الفرار من قومه.. وهو في الأبيات يستعرض ثقافته الإسلامية فيستوحي بعض آيات القرآن الكريم التي تدل على سوم الكافرين أنبياءهم – عليهم السلام – سوء العذاب واتهامهم بالجنون ما يجعلهم يتركونهم مهاجرين.

ث. **الهروب إلى فؤاده**

كان قلب الشاعر – طيلة عمره – صديقه الحميم؛ يمنحه القوة ويعينه على الثورة في شبابه، فلا يبالي الشاعر – بعد معونتِه – بمَن كان معه أو كان عليه، كما كان ملاذه وشريك آلامه بعد المرض واليأس، يجد فيه الشاعر مُؤنسَه وسلواه.. لذلك نرى الشاعر يفرُّ إليه في كل حال، فيقول متطلِّعًا من وراء صحبته إلى الجمال والخيال:

في فؤادي الرحيبْ معبدٌ للجمـالْ
شـيَّدتْه الحيـاهْ بالرُّؤَى والخيـالْ
فتلوتُ الصـلاهْ في خشوعِ الظِّلالْ
وحرقْتُ البخـورْ وأضـأْتُ الشموعْ[1]

فهو يصف فؤاده بـ (الرحيب) كناية عن الاتساع فؤاده ليسع العالم كله، وقد شيَّدته الحياة على مهلٍ وملأته بالرؤى والخيال – وكلاهما غير محدود، واستخدام الفعل الماضي (شيَّدته) يفيد أن الأمر صار واقعًا ملموسًا فلا مردَّ له !

وعندما يستشعر غرابة ما حوله، وبالتالي غُربتَه عمّن حوله وعما حوله، فإنه يصف فؤاده بالغريب، متسلِّيًا بما يُخلق فيه تباعًا – مِن سحر فريد، فيقول:

في فؤادي الغريبِ تُخلَق أكوا نٌ مِن السحر ذاتُ حُسنٍ فريدِ [2]

[1] .رجاء النقاش، أبو القاسم الشابي، شاعر الحب والثورة، ص ١٣٠ من المتدارك
[2] . مجيد طراد، ديوان أبي القاسم الشابي ورسائله، دار العالم العربي، ص ٨٢ من الكامل

ولعل وصف القلب بـ (الغريب) جاء نتيجة الصدمة بما اعتراه من مرض – لم يكن الشاعر متحسِّبًا إياه – جعل الشاعر يراه غريبا – لديه – لا يقوى على مشاركته أعباء الحياة كما كان قبلُ، وكذلك رآه غريبًا بين سائر القلوب.. وهو على ضعفه ملاذ الشاعر، يخلق له المزيد من العوالم الساحرة.. وقد استخدم الشاعر الفعل المضارع (تُخلَقُ) ليتسلى به عما يعاني، وجعله مبنيًّا للمجهول ليؤكد أن قوًى خفية تمدُّه بهذا السحر ولا تتركه وحيدًا في حالات ضعفه.

ج. **شوقه لانقضاء الحياة.**

مع تسارع الأحداث في حياة الشابي نجده يصفها بالبحر العميق نهايته الموت، أمواجه متلاطمة تحرِّكها العواصف العنيفة غدوًّا وعشِيًّا، حياةٌ حُلوُها مُرٌّ، لا تعبأ بالقلوب التي تئنُّ دامية.. فيقول:

إن الحياةَ وقد قضيْـ ـتُ قُبَيْل معرفة الحياةْ
بحـرٌ قرارته الرَّدَى ونشيدُ لُجَّتِه شَـكاةْ
وعلى شـواطئِه القلو بُ تَئِنُّ داميـةً عُراةْ
بحرٌ تجيشُ به العوا صِفُ في العشِيَّةِ والغداةْ
وتُظِلُّه سُـحْبُ الظلا مِ فلا سكونَ ولا إباةْ [1]

وقد استخدم الشاعر الاستعارة التصريحية فجعل أحداث الزمان عواصف عنيفة، وآلامَها سحبًا كثيفة، فيجسِّدها للناظرين، ما يجعل القارئ يدرك حجم معاناته.

وكلما كانت الحياة – عند الناس – مصدر بهجة كان من الطبيعي أن ينتهم المرء حاضرها، ويسعى لإطالتها والاستزادة منها، أما إن كانت مصدر بؤس وشقاء وشعور بالوحشة – مع كثرة الناس – فإن الكثير من الناس يزهد فيها، والبعض منهم يتمنى الموت ثقة بأنه – مهما قسا – فلن يكون كثقل الحياة البائسة، وهو ما نقرؤه في الأبيات التالية التي يقول الشابي فيها:

في ظلام الحياة أدفن أيا مي ولا أستطيع بكاها
وزهور الحياة تهوي بصمت محزنٍ مضجِرٍ على قدميَّا

[1] . رجاء النقاش، أبو القاسم الشابي، شاعر الحب والثورة ، ص ٦٦ من الكامل

جفَّ سحر الحياة يا قلبي البا كي، فهيا نجرب الموت هيَّا [١]

فالشاعر يدفن أيامه في صمت، وشبابه يذوي فلا يملك تجديده، ما يجعل سحر الحياة جافًّا، وعلى قِصَر الأبيات فإن الشاعر يملؤها بالاستعارات؛ حيث تتجسَّد حياته على غير ما يحب فتبدو مظلمة، وتموت أيامه أمامه فيدفنها في صمت – دليلًا على يأسه، وتتساقط أيامه على قدميه في مشهد يُدمي القلب.. فيلتمس الشاعر إلى قلبه – رفيق الرحلة – أن ينطلقا – معًا – لتجربة الموت.

ويعلل – في موضع آخر – هروبه من الحياة بامتلاء الدهر بالخداع حتى ممن يحسبهم الناسُ قدوة – كالإمام والقَسّ، ومن لا ينبغي لهم خداعهم، فيقول:

مُلِئَ الدهر بالخداع فكمْ قد
ضلل الناس من إمامٍ وقَسّ
ينقضي العيشُ بين شوقٍ ويأسِ
ويَنِي بين لوعةٍ وتأسّ
هذه سنة الحياة، ونفسي
لا تودُّ الرحيق في كأسِ رجسِ [٢]

ومع كل ذلك فإن الحياة لا تتمهل بل تنقضي – وهذه سنَّة الحياة – ما يجعله يتمرَّد على حياته.. وقد كرَّر مناشدته الموت بأن يخلصه من آلامه في عدة قصائد، منها: (في ظل وادي الموت، الجنة الضائعة، زوبعة في الظلام، قال قلبي للإله.. وغيرها).. وفي اختياره قافية السين المحرَّكة بالكسر فإن الشاعر يبُثُّها مكنونات نفسه ما يوحي بثقل همومه.

وفي موضع آخر يرجو لو أنه لم يأتِ إلى هذه الحياة، فيقول:

سأمٌ هذه الحياةُ مُعادٌ ، وصباحٌ يَكِرُّ في إثْرِ ليلِ
ليتني لم أَفِدْ إلى هذه الدنيا ، ولم تسبحِ الكواكبُ حولي
ليتني لم يعانق الفجر أحلامي، ولم يلثم الضياءُ جفوني

[١] . يوسف عطا الطريفي، أبو القاسم الشابي، حياته وشعره، ص ٧١ من المتدارك
[٢] . مجيد طراد، ديوان أبي القاسم الشابي ورسائله، دار العالم العربي، ص ١٢٠ من المتدارك

ليتني لم أزل – كما كنت – ضوءًا شائعًا في الوجودِ غيرَ سجينِ [١]

ومن العجيب أنه أثناء تمنِّي عدم الوجود في الحياة يذكر عناصرها الجميلة من صباح وفجر وضياء وأحلام، ما يدل على أن الجمال المنشود بمثابة فردوسه المفقود.

ح. **رثاء النفس**

كثير أولئك الشعراء الذين رثوا أنفسهم في حياتهم، وليس المقام مقامَ حصرٍ لهم، ما يدل على يأسهم من الحياة وإحساسهم بدنو الأجل تبعًا لما يجدون من مقدمات لذلك – من تقدم في العمر أو كثرة الأعداء أو استفحال المرض.. وغير ذلك، ويتشابه الشابي معهم – مع صغر سنِّه – في أن دافعه إلى رثاء نفسه لم يكن إحساسه بالمرض – فحسب، حيث لاقى من الأسباب – الأخرى – ما لاقى الآخرون الذين كثرت أسبابهم لاستشعار دنو آجالهم.. فيقول:

الـوداعَ الـوداعْ يا جبال الهمومْ
يا ضباب الأسى يا فِجاجَ الجحيمْ
قد جرى زورقي في الخضمِّ العظيمْ
ونشـرتُ القِلاعْ فالوداعَ الـوداعْ [٢]

فالشاعر يتحدث وكأنه في موكب جنائزي يطل منه ليودّع الدنيا – بأسرها، مكرّرًا كلمة الوداع عدة مرات، بادئًا بها ومُنهِيًا، ولا عودة في ذلك؛ إذ جهز زورقه ونصب شراعه، وليس ثَمَّ ما يُغريه بالعودة؛ فإنه لم يودِّع إلا الأسى والضباب والهموم.

<u>المعجم الشعري عند الشابي</u>

امتاز المعجم الشعري عند أبي القاسم الشابي بأمور تناسب عصره وبيئته وثقافته؛ فمال إلى السهولة في أغلب ديوانه، حتى إن أحدًا من المحققين أو الشارحين لديوانه لم يحتجْ إلى هوامش لشرح المفردات، ولم يحتج القارئ العجِل إلى المعاجم لاستبانة مفرداتها، وهذا شأن جماعة أبوللو التي تواصل مع أعضائها ونشر في مجلتها، ثم انضمَّ إليها قبل وفاته بعام، كما انسجم معجمه مع الطبيعة التونسية الخضراء الساحرة التي تنقل بين

[١] . رجاء النقاش، أبو القاسم الشابي، شاعر الحب والثورة، ص ٩٥ من المتدارك
[٢] . رجاء النقاش، أبو القاسم الشابي، شاعر الحب والثورة، ص ١٣١ من المتدارك

ربوعها.. كما أن أصحاب القضايا والهموم من الشعراء لا يركنون – غالبًا – إلى التعقيدات اللفظية، وكأن انشغالهم بالقضايا الجسيمة شغلهم عن التقعُّر أو الإغراب اللفظي.

وقد غلب على معجمه الشعري عناصر الطبيعة، فكانت نصيره وشريكه في ثورته، كما كانت ملاذه عندما استشعر خذلان الناس، وأنيسه في حالات الحزن واليأس عند موت فتاته ثم والده ثم هجوم المرض عليه.. وعندما أراد الإصلاح والتغيير استدعى مفردات الثورة بمشتقاتها ومرادفاتها.. ثم تسللت بعض المفردات إلى معجمه قبيل نهاية حياته مثل: الحزن والموت والغربة واليأس.. ومن الملاحظ تناغم المعجم الشعري مع مراد الشاعر في كل حال.

ومن تأثره بالاتجاهات الشعرية الحديثة فقد حرص على الصورة الكاملة في شعره، وجعل صورَها موحية في الكثير من الأحيان.

ومن أبرز المعالم في شعر الشابي غياب الحوار بشكل شبه كامل، ما يوحي بأنه تمحور حول ذاته وهمومه، وانشغل – منفردًا – بقضايا بيئته الضيقة وأمته الكبرى ولم يجد ردًّا من أحد يشاركه في حمل تلك الهموم.. وقد وصف حالة الخمول التي قاساها لدى أبناء الشعب بقوله:

يقولون: "صوتُ المستذلين خافت وسمعُ طغاة الأرض (أطرش) أضخم"
وفي صيحة الشعب المسخر زعزع تخر لها شـم العروش، وتهـدم
ولعلعة الحق الغصوب لها صدى ودمدمة الحرب الضروس لها فـم [١]

١ . الشابي، الديوان، شرح وتعليق، أحمد حسن بسج ٢٠٠٥ ، ص ١٣٦

خاتمة

من خلال المرور السريع بديوان أبي القاسم الشابي وما كُتِب عنه يمكن استنتاج بعض النتائج، ومنها:

١. كان شعر الشابي في بداية حياته مليئًا بالحيوية المستمدَّة من الشباب والانطلاق بين ربوع تونس والتجوال في آداب الرومانسيين والمهجريين وشعراء الغرب، لم يُنَغِّصه – في ذلك الوقت المبكر – إلا موت محبوبته – الشابة أيضًا.

٢. كان الشاعر في حالات الثورة قائدًا مزمجرًا، يثور فلا يوجد مَن يستطيع ردَّه، كما كان يستدعي معه نفسه وقلبه، ويستلهم تجارب شعراء آخرين ممن عاصروه.

٣. عندما تكالبت عليه الهموم وخذلته صحته ويئس من الاستجابة أعلن التراجع، وكان إعلانه إياه معبّرًا عن صوت ثائر قديم، فلم ينسحب في صمت، وإنما كان يعلن ذلك على مَن خذله – من قلب مريض أو بدنٍ هزيل أو مواطنين متخاذلين أو غير ذلك؛ فكان صوت التراجع والتخاذل مشوبًا بصوت الثورة؛ فلا تكاد قصيدة – مهما كان يأسه – تخلو من صوت الثائر.

٤. مال الشاعر إلى الجانب الفلسفي والرمز في شعره، فتناول قضايا الإنسان والوجود والحياة، متأثرًا بفلسفات عصره، مما أضفى عمقًا فكريًا على شعره، وكانت الطبيعة ملاذًا روحيًا للشابي، حيث استوحى منها رموزه وصوره الشعرية.

٥. انعكاس نفسية الشاعر في أشعاره؛ فالليل مؤنس في حالة العشق والشعور بالرومانسية، وهو نفسه مؤلم مريع كئيب، وعليه أن ينجلي لأن الشعب أراد الحياة.. والقيد مستحبٌ ومندوبٌ إن كان من المحبوبة، ولكنه من الضروري أن ينكسر ما دام خانقًا للشعوب.

٦. خلو ديوانه من الأغراض التقليدية كالمدح والهجاء وغيرها، فقد "كان يقدس الشعر ووظيفته في الحياة الإنسانية، ويرفض أن يكون الشعر أداة للأغراض والموضوعات المؤقتة العاجلة ... واقتصر شعره على الموضوعات الإنسانية العميقة التي يجد فيها مجالا لتأملاته وأفكاره ومشاعره"[١] ولكني أرى أن هناك مسوِّغاتٍ أخرى – فوق ذلك – منها أنه كان صغير السن، كثير الترحال، منشغلًا بدراسته، ولم يترك لنفسه الفرصة

١ . رجاء النقاش، أبو القاسم الشابي، شاعر الحب والثورة ١٩٧٥ ، ٢٩

ليكون ذا صلة – بعدُ – بمن يوجه إليه المدح أو الهجاء، فضلًا عن أن البلاد كانت تعاني من احتلال غاشم وخنوع من الحكام، وكلا الفريقين لا يستحق المدح ولا يسمح بالهجاء المباشر[١] ، فلو كان منهم ذو يد بيضاء على الشاعر أو على البلاد لنال من اهتمام الشاعر؛ بدليل مدح والده ثم رثائه، وهو مَن هو بالنسبة إلى الشاعر.. إضافة إلى رثاء محبوبته التي فقدها في سِنٍّ مبكرة.

١ . كانت ثورة الشاعر على الأحوال هجاءً غير مباشر.

المراجع

١. إسماعيل، (عز الدين إسماعيل) دراسة وتقديم ديوان أبي القاسم الشابي، دار العودة، بيروت، ١٩٧٢

٢. المصري (ابن أبي الإصبع) ، تحرير التحبير في صناعة الشعر والنثر وبيان إعجاز القرآن، تحقيق: حفني محمد شرف، ط المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، القاهرة ٢٠١٢

٣. بحري (مصطفى الحبيب) ، ، الشابي النبي المجهول، دار اليقظة العربية، دمشق، ط ١ ، ١٩٦٠

٤. التليسي (محمد خليفة)، الشابي وجبران، الدار العربية للكتاب، ط ٥ ، طرابلس، ١٩٨٤

٥. درويش (العربي حسن) ، الاتجاه الرومانسي في شعر أبي القاسم الشابي

٦. رجب، (محمود) ، الاغتراب،ج 1 ، منشأة المعارف، الإسكندرية، ١٩٧٨

٧. الشابي (أبو القاسم)، أغاني الحياة، الدار التونسية للنشر ١٩٧٠، ترجمة الشاعر بقلم/ محمد الأمين الشابي

٨. الشابي، (أبو القاسم)

٩. الديوان، شرح وتعليق، أحمد حسن بسج ، ، ط 4 ، دار الكتب العلمية، بيروت 2005

١٠.الشابي (أبو القاسم)، الخيال الشعري عند العرب، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، القاهرة ،2012

١١.الشابي (أبو القاسم) مذكرات، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، القاهرة، ٢٠١٢

١٢.طراد (مجيد) ، ديوان أبي القاسم الشابي ورسائله، دار الكتاب العربي، بيروت ١٩٩٤

١٣.الطريفي (يوسف عطا) ، أبو القاسم الشابي، حياته وشعره، ط ١ ، ٢٠٠٩

١٤.عاطف عبد اللطيف السيد، مظاهر الثورة في شعر أبي القاسم الشابي، بدون تاريخ.

١٥. العريني (عبد الله بن عبد الرحمن بن علي) رسائل أبي القاسم الشابي، دراسة موضوعاتية، مجلة دار العلوم، جامعة الفيوم، العدد ٦٢ لسنة ٢٠٢٢

١٦. علي (ريتا)، أعلام الشعر العربي الحديث، أبو القاسم الشابي، المؤسسة العربية، ط ، ١٩٨٣

١٧. فروخ (عمر) ، الشابي شاعر الحب والحياة، دار العلم للملايين، بيروت، ط ٣ ، ١٩٨٠

١٨. بن فضيلة (حبيب) الوطنية في شعر الشابي ،٢٠١٩
https://ar.lemaghreb.tn

١٩. كرو (أبو القاسم محمد)، ، الشابي، حياته وشِعره ، دار مكتبة الحياة، بيروت

٢٠. مجيد (طراد) ديوان أبي القاسم الشابي ورسائله، ط 2 ، ، 1994 دار الكتاب العربي، بيروت

٢١. نازك الملائكة ، قضايا الشعر المعاصر، دار العلم للملايين، ط ٤ ، بيروت، ١٩٧٤

٢٢.النقاش (رجاء) أبو القاسم الشابي، شاعر الحب والثورة، ط 3 ، المؤسسة العربية للدرسات والنشر، بيروت 1975

٢٣. نور الدين (صدار) ، نوال سي صابر، شعر أبي القاسم الشابي، دلالة الرؤية والأداة، مقاربة بنيوية تكوينية، مجلة كلية الآداب واللغات، جامعة مصطفى اصطنبولي، ٢٠٢٠، عدد ١

٢٤. هدارة (محمد مصطفى) دراسات فى الشعر العربى ، منشأة المعارف، الإسكندرية، ١٩٧٠

المجلات والمواقع الإلكترونية:

٢٥.مجلة الأفكار التونسية، ديسمبر ١٩٣٦ م.

٢٦.https://ar.lemaghreb.tn